بإشراف

كنيث و. مورغان

أستاذ الأديان بجامعة كولجيت

الإسلام

الصراط المستقيم

الجزء الأول

كتب فصوله

محمد عبد الله دراز (مصر)	إسحق موسى الحسيني (فلسطين)
شفيق غربال (مصر)	حسن بصري جنتاي (تركيا)
محمود شلتوت (مصر)	مظهر الدين صديقي (باكستان)
ابو العلا عفيفي (مصر)	داود س. م. تنغ (الصين)
محمود شهابي (ايران)	ب. ا. حسين جيا دننغرات (اندونيسيا)

محمد راشدي (اندونيسيا)

ترجمه وعلق عليه محمود عبد الله يعقوب

راجعه وقدم له نور الدين الواعظ

ملحق تعليقات بقلم العلامة الكبير محمود الملاح

منشورات

دار مكتبة الحياة
بيروت

شركة النبراس
بغداد

الفصل الأول

أصل الإسلام

محمد عبد الله دراز

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العلمين • الرحمن الرحيم • ملك يوم الدين • إياك نعبد وإياك نستعين • اهدنا الصرط المستقيم • صرط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين •

(سورة الفاتحة)

يتطلب صراط الاسلام المستقيم الاستسلام والاذعان لارادة الله ومشيئته

كما انزل فى القرآن الكريم(١) والاعتراف بأن محمداً رسول الله وهو الذي فسر وأوضح فى حياته اليومية رسالة ربه التي انزلت اليه • ومن آمن واتبع ذلك الصراط المستقيم فهو مسلم •

و «الاسلام» لغة «التسليم لارادة الله دون مقاومة(٢)» ويستلزم هذا الاذعان والتسليم المطلق كحد أدنى مقبول الاعتقاد الراسخ فى ان كل ما أنزله الله فى تاريخ البشرية حق وعدل• ولقد أوضح القرآن ان جميع الرسل واتباعهم منذ أقدم الازمنة استعملوا كلمة «الاسلام» اسماً لدياناتهم • وهكذا فان « الاسلام » هو التعبير الشامل الذي يطلق على كل ديانة سماويه لم تتناولها يد الانسان بتغيير أو تبديل • والقرآن يؤكد لنا الروابط الودية بينه وبين ما سبقه من الكتب السماوية ، فقد جاء فيه : «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي اوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (سورة الشورى : ١٣)•

وقال عز وجل على لسان نوح : «وأمرت ان اكـون مـن المسلمين» (سورة يونس : ٧٣) • وخاطب ابراهيم واسماعيل الله وهما يبنيان الكعبة

---

(١) قال تعالى فى كتابه العزيز :
« وانيبوا الى ربكم وأسلموا له» . (سورة الزمر : ٥٤)
والجدير بالذكر ان هذه التسمية «الاسلام» لم تكن عن اختيار او اجتهاد من النبي وانما كانت من الله عز وجل اذ قال :
« اليوم اكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام دينا » . (سور المائدة : ١٤)

(٢) قال سيدنا علي رضي الله عنه : « لانسبن الاسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي : الاسلام هو التسليم ، والتسليم هو اليقين ، واليقين هو التصديق والتصديق هو الاقرار ، والاقرار هو الاداء ، والاداء هو العمل ».
(نهج البلاغة : الجزء الثالث ص ١٨٠)

[المترجم]

فى مكة ليجعلا منها مكانا للعبادة[1] ، فقالا : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » (سورة البقرة : ١٢٨) ، ونصح يعقوب اولاده : « فلا تموتن الا وأنتم مسلمون » (سورة البقرة : ١٣٢) • فرد عليه أبناؤه مؤكدين : « قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحق الهاً واحداً ونحن له مسلمون » (سورة البقرة : ١٣٣) • وقال موسى يأمر قومه : « يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين » (سورة يونس : ٨٥) • وقال الحواريون : « نحن انصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » (سورة آل عمران : ٥٢)[2]•

والقرآن يوضح ان الاسلام هو الدين الوحيد المقبول عند الله اذ يقول عز وجل : « ان الدين عند الله الاسلام » (سورة آل عمران : ١٩) ، وعلى هذا فان الدين هو التسليم لارادة الله ومشيئته وهدايته • وجاء فى القرآن أيضا : « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » (سورة آل عمران : ٨٥)• ولذا فليس هناك من دين صحيح على وجه الارض سوى دين واحد ، هو دين الله الذي اعتنقه المؤمنون فى جميع الازمنة والامكنة • وكان كل واحد من اولئك الرسل الذين اشتركوا فى كشف طبيعة دين الله ذاك ، حجراً فى بناء ذلك الصرح الشامخ • ووحدة الانسانية المؤمنة هذه ليست ــ بالنسبة الى القرآن ــ حقيقة فحسب بل انها ــ فوق كل شيء ــ جزء أساسي من العقيدة الدينية •

---

(١) « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك .. » (البقرة ١٢٧) •

(٢) ويذكر الله نبيه ابراهيم فى القرآن بقوله : « ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين . اذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين » (سورة البقرة : ١٣٠ ــ ١٣١)•

والنبي يوسف يقول مخاطبا ربه : « انت وليي فى الدنيا والاخرة توفني مسلما والحقني بالصالحين » (سورة يوسف : ١٠١) •

[المترجم]

وعلى الانبياء ان يبدي الواحد منهم اعترافه ومعرفته بالآخر ، وعلى المؤمنين ان يعترفوا بجميع الكتب المنزلة ورسل الله وان يحترموهم دون تمييز بينهم . فالتفضيل بين رسل الله خطيئة بل جريمة تقوض عقيدتنا من أسسها . « ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريــدون ان يفــرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا ، اولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهيناً » (سورة النساء : ١٥٠ ــ ١٥١) . ان التفضيل بين رسل الله كفر ، ذلك لانه يجعل من رغباتنا وعواطفنا وتعصبنا مقياسا ومبدأ لعقيدتنا ، وفي هذا أعتراض على ارادة الله التي أثبتت صحتها الدلائل السماوية التي ظهرت مع كل واحد من رسله(١) .

---

(١) الاعتقاد بالكتب السماوية ركن من اركان الدين . قال عز وجل « آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » . (ســورة البقـرة : ٢٨٥) .

والقرآن يقر بأنه مصدق للكتب الالهية السـابقة ومهيمن عليهـا . قال تعالى مخاطبا رسوله محمداً (ص) : « وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » . (سورة المائدة : ٤٨) .

ويشير القرآن الى التوراة فيقول : « وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما انزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدىً للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا انتم ولا اباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » (سور الانعام : ٩١) .

ويشير القرآن كذلك الى انجيل عيسى عليه السلام فيقول « وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم اهل الانجيل بما انزل الله فيه ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الفاسقون » (سورة المائـدة : ٤٩ ــ٥٠) .

والقرآن يدعو الى الايمان بالرسل جميعا دون تفريق بينهم . قال الله تعالى : « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما اوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون» (سورة البقرة : ١٣٦) . ويحتم الاسلام الايمان

ان مهمة رسل الله الاساسية بث الايمان الصحيح بأن هناك الهاً واحداً وتوطيد العدالة بين الناس . وتنبعث وحدة الايمان من اله واحد وتخلق مجموعة متحدة من الانبياء ، وأتباعهم يشكلون معاً أمة روحانية فذة — هي أمة الاسلام . وهكذا يقول الله فى كتابه العزيز بعد أن عدد الانبياء من نوح الى عيسى : « ان هذه أمتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون » . (سورة الانبيـاء : ٩٢) .

ويعبر الانسان عن ايمانه بالتنزيل الالهي وبالسلام الروحاني الذي يتأتى من التسليم لله والاذعان له بان يطيع أوامر الله ويتجنب نواهيه وذلك فى حياته اليومية . واطاعة أوامر الله بخشوع تشكل ركنا أساسياً ثانياً فى الاسلام . وهكذا — باطاعة اوامر الله بطريقة عملية — يتم الايمان بالتنزيل الالهي ، فالقرآن — مثلا — يأمرنا ان نلتزم فى حياتنا الشخصية جادة الحق والصواب فى افعالنا واقوالنا ، وان نكبح جماح عواطفنا ونطهر ارواحنا . وفى حياتنا العائلية يأمرنا الله ان نعامل النساء بلطف وان نرعى حقوقهن كاملة ونكرمهن . وفى الحياة الاجتماعية ان نحكم بين الناس فى جميع الحالات بالعدل والمساواة ، وان نعاملهم بالبر ، ولا نظلم أحداً بسبب بغضائنا او كراهتنا له . والحياة مقدسة لدى الله فلا يجوز وضع حد لها الا بالعدل .

بهؤلاء الرسل دون تفريق بينهم . قال تعالى : آمن « الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين احد من رسله » (البقرة : ٢٨٥) .

وبين القرآن بان لكل رسول ميزاته الخاصة ولكنهم جميعا على خلق عظيم فقال عن ابراهيم « انه كان صديقا » وعن موسى « انه كان مخلصا » وعن اسماعيل « انه كان صادق الوعد » وعن نوح وهود وصالح ولوط ان كلا منهم « رسول امين » وعن عيسى « وجيها فى الدنيا والاخرة ومن المقربين » وعن يحي « وآتيناه الحكم صبيا . وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا ». وخاطب محمدا بقوله « وانك لعلى خلق عظيم » ووصفه بانه « رسول الله وخاتم النبيين ».

[المترجم]

وفي الحياة الروحية على المسلمين ان يضعوا الله دائما نصب اعينهم[1] وألا يقنطوا من رحمته[2] ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون[3] .

قال سيدنا محمد (ص) : « المسلم من سلم الناس من يده ولسانه[4] » .

وهكذا فالاسلام سلم خارجي وسلم داخلي ، سلم مع الله وسلم مع جميع المخلوقات ، سلم يتأتى من الخضوع لله والتسليم لامره .

ومن الجدير بالذكر ـ على كل حال ـ ان اصطلاح « الاسلام » من ناحية تاريخية مر بتطور تدريجي مستمر خلال التنزيلات الالهية المتوالية ، فكل كتاب منزل جديد ، وكل نبي جديد ، يشكل عنصراً جديدا يضاف الى دستورنا . وظل ـ بطبيعة الحال ـ أكمل تنزيل مقصوراً على آخر تنزيل وهو الذي يوجز ويؤكد جميع التنزيلات الاخرى . ولذا فهناك ما يبرر اعتبارنا اولئك الذين آمنو بآخر تنزيل بانهم هم المسلمون . وعلى هذا الاساس فالقرآن يطلق عليهم لقب « المسلمين » وليس مجرد « مسلمين » .

---

(١) قال تعالى يحث عباده على خشيته : « ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فاولئك هم الفائزون » (النور : ٥٢) .

(٢) قال عز وجل : « قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم » (الزمر : ٥٣)
وقال ايضا : « ولا تيأسوا من روح الله انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » (سورة يوسف : ٨٧) .

(٣) قال الله تعالى « فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين » . (آل عمران : ١٥٩) . وقال ايضا « .. وعلى الله فليتوكل المتوكلـــون » . (التغابن : ١٣) .

(٤) وفي رواية اخرى « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » رواه عبد الله بن عمرو ـ التجريد الصريح لاحاديث الجامع الصحيح للحسين بن المبارك الزبيدي جزء اول ص ٩ .

[المترجم]

وكان القرآن آخر تنزيل من الله عز وجل ، ولذا بات لزاما علينا ان نعرف القرآن ليتسنى لنا السير فى الصراط المستقيم للاسلام • وأيا كان الامر فان الذين يعرفون النبي محمداً رسول الله والذي فسر القرآن وكان مثله الحي يعرفون القرآن خيرا من سواهم •

محمـــد (ص)

ولد محمد (ص) من عائلة عربية عريقة عرفت بمآثرها الدينية وفعالياتها السياسية ، وكان مولده فى مكة المكرمة يوم الاثنين ، التاسع من شهر ربيع الاول من العام الثالث والخمسين قبل الهجرة (٢٠ نيسان ٥٧١ ب • م) • توفي ابوه وأمه حامل به • وماتت أمه وعمره ست سنوات فأخذه جده لأبيه وكان جده يتنبأ له بمستقبل زاهر • وبعد عامين توفي جده ، فكفله عمه ابو طالب ، وكان عمه هذا يحنو عليه حنو الآباء •

كانت الصلة العاطفية بين الفتى الشاب وعمه قوية حتى كثيراً ما كان يصحبه فى رحلاته مع قوافل الابل • ويروى انه عندما كان فى الثانية عشرة من عمره رافق عمه فى رحلة الى سوريا حيث قابل راهبا سريانيا يدعى « بحيرا » رأى فى الفتى خصائص النبي فنصح عمه ان يحرص عليه دائما وألا يثق باليهود — على وجه الخصوص — فقد يريدون به شرا اذا ما عرفوا عن النبوة التي ينتظر منه تحقيقها •

وقضى محمد (ص) أيام شبابه فى ظروف متواضعة اذ كان يعمل — معظم الوقت — راعيا • وكانت رعاية الغنم — كما اشار النبي فيما بعد — مهنة كثير من الانبياء الآخرين لا سيما موسى وداود •

ميز نفسه — وهو فتى يافع — بالاخلاق الفاضلة والحياء الشديد والعفة

قومه يسعون وراءها . حاز ثقة كل من عرفه اذ كان جديرا جدارة تامة باللقب الذي اطلق عليه ـ وهو «الامين» . وعندما بلغ العشريـــن من عمره دعي لمجالسة اجل الشيوخ من أهل الفضل ، اولئك الذين كانوا يتنادون لنصرة الضعيف والبائس ويسعون لتوطيد السلم بين القبائل .

وعند بلوغه الخامسة والعشرين من عمره اقترن بخديجة ـ المرأة الفاضلة الثرية(١) . وفي حياته الزوجية أظهر لعائلته وقومه صفاته الانسانية الممتازة ، وعاش في ظروف مريحة عن طريق التجارة التي قام بها بأموال زوجته . ولكنه جعل من موارده وسيلة لنشر ظلال السعادة ليس الا ، فأخذ على نفســه ـ مثلا ـ تثقيف علي ابن عمه ابي طالب رداً لجميل عمه وفضله عليه في صباه .

وظل محمد (ص) نعم الزوج المحب المخلص طيلة ربع القرن الذي عاشه مع زوجه خديجة . وظل ـ بعد وفاتها ـ شغوفا باستعادة ذكريات حياتهما الزوجية الحلوة(٢) ومع هذا فانه لم يثر غيرة زوجته الثانية . وكان أباً وجداً

---

(١) هي خديجة بنت خويلد بن اسد بن عبد العزي بن قصي .

(٢) قال الرسول يتحدث عن خديجة امام عائشة : « والله ما ابدلني الله خيرا منها : آمنت بي حين كفر الناس وصدقتني اذ كذبني الناس وواســتني بمالها اذ حرمني الناس ، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء » (المحب الطبري : السمط الثمين ص ٢٦) . والجدير بالذكر انه رزق منهــا بالقاسم وعبد الله ورقية وزينب وام كلثوم وفاطمة .

وروى المحب الطبري في السمط الثمين (ص٢٦) ان عائشة قالت له يوما وقد الفته لاينقطعن ذكرها: «كأن لم يكن في الدنيا امراة الاخديجة!» فرد عليها صلى الله عليه وسلم :

« انها كانت وكانت ، وكان لي منها ولد » . ورأته صلى الله عليه وسلــم اذا ذبح الشاه يقول : « ارسلوا الى اصدقاء خديجة » فحدثته في ذلك مرة فقال : « اني لاحب حبيبها » .

(نقل القصــــة كذلك ابن حجــــر في كتابة « الاصابــــة » ج ٨) .

ممتازا يحنو على أولاده وأحفاده حنواً مثاليا ، فكانوا يتعلقون بعنقه أو يعتلون ظهره حتى أثناء صلاته ، وكان يقطع حديثه ليحييهم ويجلسهم في مقعده . جاء أعرابي الى النبي (ص) فقال : « أتقبلون الصبيان فما نقبلهم » فقال النبي (ص) أو أملك لك ان نزع الله من قلبك الرحمة » (صحيح البخاري ، كتاب الآداب ، الفصل الثامن عشر[1]) .

وكانت أشهر أعماله في الفترة الواقعة بين زواجه ونبوته ما حدث وهو في الخامسة والثلاثين من عمره . كان ذلك عندما اعيد بناء الكعبة ، وارادوا وضع الحجر الاسود في مكانه فاختلفت قبائل العرب فيما بينها وتنافست منافسة حادة كل تريد شرف رفعه الى مكانه ، وكادت تثور فتنة عمياء تسل فيها السيوف ، لولا ان دخل عندئذ محمد (ص) فهتف الناس « الامين ، الامين !» ووافق الجميع على الاحتكام الى «الامين» الذي به يثقون وعليه يعتمدون . وبما عرف عنه من سرعة بديهة ورجاحة عقل وعدم تحيز او محاباة، بسط محمد (ص) عباءته على الارض ووضع الحجر الاسود عليها وطلب من شيوخ القبائل الكبيرة ان يمسكوا بأطراف العباءة ويرفعوا الحجر معاً الى موضعه . ثم تناول الحجر ووضعه في مكانه بيديه الكريمتين ، وهكذا حل الخلاف واعاد الوئام بين القبائل .

وفي هذا الصدد كتبت الدكتورة بنت الشاطيء في كتابها (نساء النبي : ص ٤٣) :
«وحتى يوم الفتح ــ وقد مضى على وفاة خديجة اكثر من عشر سنوات حافلة بأجل الاحداث ــ ترى رسول الله يختار مكانا الى جوار القبر الذي ثوت فيه زوجته الاولى ، ليشرف منه على فتح مكة وليقيم في قبة ضربت له هناك ، تؤنسه روح خديجة ثم تصحبه من بعد الفتح وهو يطوف بالكعبة ويحطم الاصنام ، ملتفتا بين آونة واخرى الى بيتهما العزيز حيث رشف محمد من نبع الحب والحنان ما تزود به لذلك الكفاح المضني الطويل » .

(١) هذا النص منقول من كتاب « التجريد الصحيح لاحاديث الجامع الصحيح » تاليف الحسين بن المبارك الزبيدي ــ الجزء الثاني ص ١٣٨ .

[المترجم]

وكان محمد (ص) قد أصبح ـ فى هذا الوقت ـ شخصا ناضجا جسميا وعقليا ومعنويا ، وقد وهب من الخصائص والميزات ما أهله لتسنم مقاليد الزعامة بقية عمره . كان أطول من المتوسط ، قوي البنية ، عريض الصدر والمنكبين ، ذا ملامح نبيلة صافية وفم كبير ، واسنان بيضاء متباعدة قليلا ، وعيون سوداء تتألق فى محجرين حمراوين ، له بشرة بيضاء وردية ، وشعر اسود متماوج ينزل الى ما تحت اذنيه بقليل ، مشيته فيها حيوية واعتزاز ، ملابسه بسيطة ، لكنها دائما نظيفة وأنيقة(1) .

كان فى منتهى الوقار والرزانة ، يسيطر على أعصابه عادة ، قليل الحديث ، لكن حديثه لطيف دائما وتغلب عليه روح الدعابة . ولم تكن شمائله الحلوة ورقته المتناهية تجعله يكره غيره على سماع حديثه أو يبدي رغبة فى انهاء حديث غيره . ولم يكن البادئ أبداً فى سحب يده عندما يصافح احداً . كان صارماً لا يلين فى تطبيق العدل للآخرين ، لا يحابي أحداً ، ولكنه كان حليما متساهلا لينا فى الامور التي تمس حقوقه الشخصية .

وعندما صار فيما بعد سيد الدولة الاوحد لم يغره متاع الدنيا ، بل ظل ـ كما كان دائما ـ بسيطا معتدلا ، يتجنب معتمداً جميع انواع الترف والابهة لعائلته ولنفسه . وذلك المتاع القليل الذي خلفه بعد وفاته لم يرثه اقاربه بل وزع على الفقراء .

وعندما بلغ الاربعين من عمره اقترب من الحدث الفاصل الذي غير حياته تغييرا شاملا كما غير وجه التاريخ ـ تاريخ البشرية جمعاء .

---

(1) عن سعيد بن ابي هلال عن ربيعة بن ابي عبد الرحمن قال سمعت انس بن مالك يصف النبي (ص) قال : كان ربعة من القوم ليس بالطويل ولا بالقصير ، ازهر اللون ، ليس بأبيض امهق ولا آدم ، ليس بجعد قطط ولا سبط رجل انزل عليه وهو ابن اربعين فلبث بمكة عشر سنين ينزل عليه ، وبالمدينة عشر سنين ، ليس فى رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء ، قال ربيعة فرأيت شعرا من شعره فاذا هو احمر ،فسألت فقيل احمر من الطيب .

وعن ابي اسحق عن البراء بن عازب قال كان النبي (ص) مربوعا ما بين المنكبين له شعر يبلغ شحمة اذنه . (صحيح البخاري ـ ٤/٢٢٧ ـ ٢٢٨)

[المترجم]

وكانت اولى دلائل دعوته للنبوة انه ــ على حد تعبيره ــ صار يرى فى يقظته كل ما يراه فى حلمه على وجه الدقة[1] . وشعر فى نفسه ــ بعد مدة ما ــ ميلا قويا للعزلة والانفراد ، فقصد ، غار حراء ــ او جبل النور ــ شمالي مكة. وكانت هذه خلوة روحانية لم تكن لتقطعها سوى زياراته لمكة أحيانا للتزود بالطعام .

وفى اليوم السابع عشر من شهر رمضان فى العام الثالث عشر قبل الهجرة (شباط عام ٦١٠ ب . م) هبط الوحي على محمد لاول مرة . وكان هذا الوحي على شكل حديث بين معلم وتلميذ ــ بين الملاك جبريل ومحمد (ص).

« أقرأ » أمره جبريل ، فرد عليه محمد : « ما أنا بقاريء » . وكرر جبريل أمره «اقرأ» ، فتساءل التلميذ مندهشا «وماذا اقرأ ؟» واصر جبريل «اقرأ» ، وتساءل الناسك المتعبد «ولكن كيف اقرأ ؟!»[2]. وعندئذ تلا عليه جبريل الآيات الخمسة الاولى من سورة العلق :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » .

---

(١) جاء فى صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها انها قالت : «..اول ما بديء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق لصبح ، ثم حبب اليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل ان ينزع الى اهله ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء » .

(٢) وفى رواية عن الرسول ان الملك قال له «اقرأ» فقال له الرسول «ما انا بقاريء »، قال ،فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال اقرأ فقلت ما انا بقاريء فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم ارسلني فقال اقرأ فقلت ما انا بقاريء فأخذني فغطني الثالثة ثم ارسلني فقال: « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ..» الى آخره الآيات.

ــ التجريد الصحيح لاحاديث الجامع الصحيح جـ١ ص٥ ــ

[المترجم]

كان هذا أول ما أنزل من القرآن ، ثم اختفى الملاك وقام محمد ، وقد تملكه الهلع ، ليغادر الغار ، وعندئذ سمع صوتا يناديه ، فرفع رأسه ورأى الملاك يملأ الافق على سعته ، وسمعه يخاطبه : « يا محمد ! انك لرسول الله حقا ، وانا جبريل . » ولم ير محمد بعد ذلك شيئا .

ولما انتهى الى زوجه خديجة قص عليها ما حدث وعبر لها عن مخاوفه . ولكن زوجته الوفية طمأنته بكلمات مشجعة حكيمة وقالت له « الله يرعاك يا ابا القاسم ، ابشر يا ابن عم وأثبت . فوالذي نفس خديجة بيده ، اني لأرجو ان تكون نبي هذه الامة . والله لا يخزيك الله أبدا .. انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق[1] » . وارادت ان تبعث في نفسه المزيد من الطمأنينة فصحبته لزيارة ابن عمها ورقة بن نوفل فقال له هذا : «والذي نفسي بيده ، انك لنبي هذه الأمة ، ولتكذبن ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن ، ولئن انا ادركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه »[2] . فسأله الرسول متعجبا « أو مخرجي هم ؟ » أجاب ورقة : « نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به الا عودي ، ليتني اكون فيها جذعا ... ليتني أكون حيا ! » .

وصار محمد (ص) يتردد كثيرا على غار حراء حيث هبط عليه الوحي أول مرة عسى أن يهبط عليه ثانية ، ووضع نفسه في ظروف مماثلة ، فكان

---

(١) هذا النص منقول من السيرة النبوية لابن هشام الجزء الاول ص ٢٥٣ طبعة الحلبي . وورد بنصه في السمط الثمين للمحب الطبري ص١٩ .

(٢) هذا النص منقول من السيرة لابن هشام ـ الجزء الاول ص ٢٥٤ . وفي رواية ان خديجة كانت قد زارت ورقة بن نوفل قبل ان تصحب الرسول معها وحدثته بأنبائه فانتفض يقول لها في حماس : «قدوس قدوس ، والذي نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الاكبر الذي كان يأتي موسى وعيسى ، وانه لنبي هذه الامة ، فقولي له فليثبت » .
(نفس المصدر : اي السيرة لابن هشام ٢٥٤/١)

[المترجم]

يسير فوق الجبال ويدير بصره فى كل الاتجاهات . ومرت الايام ، وانقضت الاسابيع ، وتلاحقت الشهور ، ومضى عام ، وبدأ آخر ، بل وعام ثالث فى رأي الشعبي ، دون ان يهبط عليه الوحي ثانية . وكان عزاؤه الوحيد كلما شعر بنفسه على شفا اليأس والقنوط أنه يسمع صوتا يناديه : « يا محمد ! انك لرسول الله ، وأنا جبريل » دون ان يتلقى الرسالة التي طال تلهفه اليها .

كان محمد (ص) قد بلغ الثالثة والاربعين من عمره ، وظل يستيقظ كل ليلة تقريبا على أمل ان يسمع هذه الكلمة الخطيرة العظيمة الموعود بها .
وفى رمضان من كل عام كان يخرج الى غار حراء ليخلو بنفسه ، وذات يوم وبعد ان انهى خلوته وبدأ يستعد للنزول الى مكة سمع صوتا يناديه فالتفت حواليه : يمنة ويسرة ووراءه ، لكنه لم ير احداً . ثم رفع بصره الى السماء فرأى الملاك الذي هبط عليه فى غار حراء . وأذهلته هذه الرؤيا المفاجئة وجلالة هذا الكائن السماوي ، حتى لم يستطع ان يظل واقفا . وعندئذ جاءه الزائر الجليل بالمرسوم الذي خوله مسئوليته الثانية : « يا أيها المدثر ، قم فأنذر » (سورة المدثر ١ــ٢) .

وهكذا كان على محمد (ص) لا ان يتلقى الرسالة الآلهية فحسب ، بل ويدعو لها وينشرها بين الناس . والى جانب دوره فى النبوة أضيف دوره رسولا لله .

وبعد هذه الرسالة الثانية صار الوحي يهبط عليه بين يوم وآخر ، دون فترات انقطاع طويلة كتلك التي جاءت بين الوحي الاول والثاني .

ودامت مهمة رسول الاسلام عشرين عاما : عشرة منها فى مكة قبل الهجرة (وهي انتقاله من مكة الى المدينة عام ٦٢٢ م وهي بدء التاريخ الهجري الاسلامي) ، وعشرة اخرى فى المدينة قبل وفاته .

وبدأ دعوته فى مكة بين اقرب الناس اليه ، يتحدث بها فى حذر وحيطة. وكان اول من آمن به واعتنق الاسلام ابو بكر من الرجال ، وخديجة من النساء ، وعلي من الشباب ، ثم جاء دور الغرباء وكان أولهم زيد بن حارثة اليماني وبلال بن رباح الحبشي وصهيب بن سنان الرومي . وانتشر الاسلام بطيئا فى مكة على نطاق خاص فى باديء الامر ، ثم اصبح علانية فى العام

الكفار ، لكنها ما ان شرعت تثلب الوثنية حتى ثار العرب يعارضونها وأظهرو العاشر قبل الهجرة . كانت الدعوة فى باديء الامر وادعة رقيقة ، لم تثر عدوة لها البغضاء والكراهية .

كانت معارضة العرب فى أول الأمر متجهة بالدرجة الأولى ضد النبي ، ولكنها كانت رقيقة ناعمة تجاه اتباعه ممن كانوا يتمتعون بمركز قبلي أو عائلي كبير . أما تجاه اولئك الذين لم يكن لهم حول ولا قوة فقد نزعت الى القسوة ، ولذا فان النبي — فى منتصف العام التاسع قبل الهجرة — سمح لاحد عشر رجلا وأربع نساء من أتباعه بالالتجاء الى ملك الحبشة الذي أحسن وفادتهم ثم أعلن أسلامه . لم يكن عدد المسلمين فى مكة — فى بدء العام الثامن قبل الهجرة — ليتجاوز الاربعين رجلا وقرابة عشر نساء ، كانوا يجتمعون سرا . وجاء اعتناق بعض الشخصيات الهامة مثل حمزة وعمر — فى ذلك العام — تأييداً كبيراً لأتباع محمد وتشجيعاً لهم فاستطاعوا ان يقيموا صلواتهم علنا قرب الكعبة ، وبدأ الدين الجديد ينشر لواءه بمزيد من السرعة .

هذا النمو الجديد للاسلام أثار الكفار فعقدوا العزم على مضاعفة عنفهم واضطهادهم للمسلمين حتى اضطرت — فى العام السابع قبل الهجرة — جماعة اخرى تتألف من ثلاثة وثمانين رجلا وثماني عشر امرأة للهجرة الى الحبشة . وصار محمد نفسه هدفاً لمؤامرة دبرت ضده ، ولكن قام بحمايته أقرب فخذين من عشيرته اليه — هما بنو هاشم وبنو عبدالمطلب الذين أحاطوا به فى حي آل هاشم يدفعون عنه الأذى . وتألبت ضده الافخاذ الاخرى مع بقية القبائل تناصبه العداء ، وتعاهدت فيما بينها — بميثاق خطي — على مقاطعة الاحياء التي قامت بحماية محمد الى ان تسلمه اليهم . وظلوا على مقاطعته العنيفة ثلاث سنوات ، ولكنهم تخلوا عنها فى السنة الرابعة قبل الهجرة .

لقد كان فى انهاء المقاطعة ما يتيح للنبي تنفس الصعداء لو لم تصبه خسارتان فادحتان فى ذلك الحين : هما وفاة عمه ابي طالب ثم وفاة زوجته

خديجـة بعد فترة وجيزة - ويدعو النبي هذا العام «عام الحزن(١) ».

وبعد ان اصبح الرسول أرملا يفتقد الزوجة التي تحنو عليه وتؤنسه ، تزوج «سودة» وهي مؤمنة شجاعة لاقت اضطهادا كثيرا فى مكة ، وقاست الامرين فى هجرتها ، ثم فقدت زوجها بعد عودتهما من الحبشة(٢) . وهكذا جاء زواج النبي بها تعويضا لها عما لحقها من أذى اكثر من أن يكون تعويضا لـه .

---

(١) يروى ان خولة بنت حكيم السلمية سعت اليه ذات مساء ـ بعد ان انتهت ايام الحداد ـ متلطفـة مترفقة تقول له : « يا رسول الله ، كأني اراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة » فأجاب « اجل ، كانت ام العيال وربة البيت»

(تاريخ الطبري ـ الجزء الثالث ص ١٧٥)

(٢) هي «سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس ، القريشية العامرية » وامها « الشموس بنت قيس بن زيد » من بني عدي بن النجار (السيرة لابن هشام ـ الجز ءالاول ص ٣٥٢) .

كتب عباس محمود العقاد فى كتابه «عبقرية محمد» (ص٢٠١) يعلل زواج النبي بسودة : ... ثم كانت سودة هي اولى النساء اللاتي بنى بهن (اي الرسول) بعد وفاة خديجة ، وكان زوجها الاول ـ ابن عمها ـ قد توفي بعد رجوعه من الهجرة الى الحبشة ، وكانت هي من اسبق النساء الى الاسلام ، فآمنت وهجرت اهلها ونجا بها زوجها الى الحبشة فرارا من اعنات المشتركين له ولها ، فلما مات لم يبق لها الا ان تعود الى اهلها فتصبأ وتؤذى ، او تتزوج بغير كفؤ او بكفوء لا يريدها ، فضمها النبي اليه حماية لها وتأليفا لاعدائه من آلها . وكان غير هذا الزواج اولى به لو نظر الى لذات حس ومال الى متاع .»

وكتبت الدكتورة بنت الشاطيء فى كتابها «نساء النبي» (ص٥١) عن سودة عندما توفى زوجها تقول :

« ... ولم تك الا ايام حتى مات المهاجر العائد ، وترك ارملته من بعده قد اسلمتها محنة الاغتراب الى محنة الترمل ..

وتأثر صلى الله عليه وسلم للمهاجرة المؤمنة المترملة ايما تأثر ، فما كادت « خولة بنت حكيم » تذكرها له ، حتى مد يده الرحيمة اليها يسند شيخوختها ويهون عليها الذي ذاقت من نكد الحياة .»

[المترجم]

وبعد أن فقد محمد عمه ، وفقد معه تأييده ونصرته له ترك مكة بحثا عن حلفاء وأنصار ، وقضى عشرة أيام غير موفقة مع قبيلة ثقيف فى الطائف[1] اذ لم يحسنوا وفادته ، فعاد الى مكة خائب الامال ليكرس جهوده فى نشر الدعوة بين مضارب الحجيج عند الكعبة . وفى نهاية العام الثالث قبل الهجرة لمح بصيص أمل فى رجال ستة قدموا من المدينة ، كانوا قد سمعوا برسالة النبي فى لقاء قصير فى «منى» ، فاستجاب هؤلاء الأخيار بحماس لدعوته وحملوا الرسالة المقدسة الى المدينة يدعون لها حيث التف حولهم عدد غفير من المهتدين .

وعندما اقترب العام التالي من نهايته ـ وهو العام الثاني قبل الهجرة ـ زار النبي خمسة من اولئك الرجال من أهل المدينة ومعهم سبعة من المهتدين وعاهدوه على ألا يشركوا بالله وأن يتجنبوا الفواحش وان يتقيدوا بتعاليم الاسلام . وبعد عام قدم الى مكة خمسة وسبعون رجلا من أهل المدينة ليبايعوا الرسول ويعلنوا ايمانهم ويشهروا اسلامهم ، وعاهدوا الرسول على أن ينصروه واخوانهم المسلمين ويحموهم فيما اذا اختاروا المدينة ملاذاً لهم . وهذه أول معاهدة دفاعية فى التاريخ الاسلامي .

وحالما أخذ النبي هذا العهد من أهل المدينة خول بل أمر أتباعه ممن يملكون الوسائل الكافية ان يستوطنوا « المدينة »مع اخوانهم الجدد ، اما اولئك الذين أصروا على البقاء فى مكة دون سبب معقول فقد اعتبروا

---

(١) وهناك فى الطائف ناجى ربه بقوله الخالد « اللهم اليك اشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين . انت رب المستضعفين وانت ربي . الى من تكلني ؟ الى بعيد يتجهمني او الى عدو ملكته امري ؟! ان لم يكن بك علي غضب فلا ابالي . ولكن عافيتك اوسع لي . اعوذ بنور وجهك الذي اشرقت له الظلمات ، وصلح عليه امر الدنيا والاخرة من ان تنزل بي غضبك او تحل علي سخطك ، لك العتبي حتى ترضى ولا حول ولا قوة الا بك » (حياة محمد ـ للدكتور حسين هيكل ط ٥ ص ١٨٧).

[المراجع]

«مرائين» . ولكن النبي نفسه لم يبادر لترك مركزه والالتحاق بأتباعه المخلصين بل ظل ينتظر أمر الوحي ، وقد جاءه بعد ثلاثة أشهر قبل المؤامرة التي دبرها الكفار لاغتياله بيوم واحد .

وعندما لحق محمد بأتباعه فى المدينة لم يكن المسلمون يشكلون أمة أو حتى طائفة ، بل انهم حينما كانوا فى مكة لم تكن لهم الاغلبية ولم يكن لهم أي مركز ذي سلطة ، ولم يكن باستطاعتهم رفع صوتهم بالاذان ولا الاجتماع فى مكان عام . اما فى المدينة فقد استطاعوا الاستيطان جهرا وعلانية ، وبدأ الاسلام يقوى ويشتد ، وكانت تقام صلاة الجماعة ـ حتى قبل وصول النبي . ومنذ اليوم التالي لوصول النبي الى المدينة مارس سلطاته كاملة ، وبدأ فى تشكيل الدولة ، وشرع فى بناء الجامع الكبير .

كان نظام الدولة التي اقامها محمد (ص) فى المدينة من نوع أصيل جديد ، اذ كان يجمع بين الشورى والحكم المطلق[1] ، كما كان ـ فى نفس الوقت ـ يجمع بين حكم رجال الدين والاشتراكية . كان ذلك النظام ـ فى اطاره ـ دينيا مطلقا يرتكز على الاوامر والاحكام العامة المنزلة ، ولكنه ـ فى تفاصيله وتطبيق أحكامه ـ اشتراكي شوري .

ستظل الدولة الاسلامية التي أوجدها النبي فى المدينة نموذجاً لكل دولة أسلامية جديرة بهذا الاسم ، وهي فذة فى تاريخ البشرية ، لأنها ـ بالرغم من انها قامت فى الاصل على أسس دينية ـ أقرت مبدأين لا وجود لهما الا فى دولة غير دينية ، أو فى ديانة ليست لها علاقة بحكومة دولة . وأول هذين المبدأين حرية الاديان ، وهي حرية لا تقرها الدولة الاسلامية وتسمح لها فحسب ، بل انها تتعهد برعايتها وحمايتها . وثانيهما مبدأ تعريف فكرة الوطن أو الدولة فى أوسع معانيها تسامحا وانسانية ، وهو مبدأ يكفل المساواة فى الحقوق والواجبات الوطنية بين جميع افراد الدولة على اختلاف اجناسهم والوانهم والغاتهم وعقائدهم .

---

(1) قال الله تعالى «وامرهم شورى بينهم» (الشورى : ٣٦) .. « وشاورهم فى الامر واذا عزمت فتوكل على الله » (آل عمران : ١٥٩) وهذه الآية على قصرها تجمع بين الشورى والاستقلال بالراي فى الحكم فى آن واحد .

[المراجع]

لقد كرست الجهود جميعها خلال العام الاول ونصف العام الثاني بعد الهجرة للانشاء والتعمير فى جو من السلم والهدوء ، ولتطوير الفرائض الدينية والخدمات الاجتماعية كالصوم والزكاة وتآخي المهاجرين مع الانصار من أهل المدينة وابرام الاتفاقيات بين القبائل وما شابه ذلك ، ولذا لم يكن هناك من داع لان يلجأ المسلمون للقوة • ولم يتعرضوا لقوافل الكفار التي كانت تمر بالقرب من المدينة ، بمحاولات فاشلة ، الا لتعويض الخسائر التي أصابتهم عندما تركوا بيوتهم ومتاعهم الدنيوي غنيمة لاعدائهم فى مكة ، ولوضع حد للاذى والاضطهاد الذي كان يلحقه اعداؤهم باخوانهم فى مكة.

وفى رمضان من العام الثاني للهجرة رد الكفار على هذه المحاولات العقيمة للتعرض بقوافلهم فأعلنوا العدوان على المدينة ، واضطر المسلمون للدفاع عن أنفسهم ـ ولو بطريقة ارتجالية ـ وحققوا نصرا مبينا بالرغم من انهم كانوا اقل عددا وعدة . وفى شوال من العام الثالث للهجرة ثأر أهل مكة لأنفسهم ، وظلت المناوشات بين الطرفين سجالا بضع سنوات حتى حل العام السادس للهجرة فعقدت هدنة بين الطرفين أمدها عشر سنوات • وكانت هذه الهدنة فى صالح المسلمين اذ هيأت لدينهم النمو والانتشار • ولم يقتصر انتشاره بين عرب الحجاز وحدهم ـ سكان الجانب الغربي من شبه الجزيرة العربية وهم الذين كانوا على اتصال متكرر مع المسلمين بل ان النبي بعث فى هذه الاثناء برسله الى هرقل امبراطور الرومان والى الملوك والامراء فى فارس ومصر والبحرين واليمن(١)•

---

(١) هذا نص كتاب رسول الله (ص) الى هرقل : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبدالله ورسوله ، الى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى. اما بعد : فاني ادعوك بدعاية الاسلام ، اسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين فان توليت فان عليك اثم اليريسين ، ويا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » ـ التجريد الصحيح لاحاديث الجامع الصحيح ٨/١

[المترجم]

وفى العام الثامن للهجرة نقض أهل مكة الهدنة فتقدم النبي نحو مكة ودخلها فاتحا • وهنا تجلى لاهل مكة جميعا ما يتحلى به الرسول من خلق كريم رحيم(١) اذ انه ــ وقد دخل مكة فاتحا منتصرا ــ أعلن عفوه بكرم وتسامح عن جميع الذين كانوا قد اضطهدوه دون ان يلحق بأي واحد منهم اذى فى الاموال او الارواح(٢)• وعلى أثر فتح مكة تهافت اهل الجزيرة العربية على الدخول فى الاسلام ، الا ان البزنطيين فى الجزء الشمالي من شبه الجزيرة العربية استعدوا لشن هجوم عنيف على الدين الناشيء • وفى العام التاسع للهجــرة سار النبي بنفسه علــى راس حملة الى تبــوك (فى منتصف الطريق بين المدينة ودمشق) ضد الروم مما جعلهم يتخلون عــن محاولتهم ويقلعون عــن فكرتهم • وعندما عاد النبي الى المدينة المنورة ابرم معاهدات عدم اعتداء مع الدول المجاورة له فى الشمال •

وفى العام التاسع الهجري امر النبي (ص) ابا بكر ــ اقرب اصفيــائه اليه ــ ان يحج بالناس الى مكة ، ويعلن على رؤوس الاشهاد ان الحج الــى الكعبة أصبح ــ منذ ذلك الحين ــ محرماً على الكفرة والمشركين جميعا(٣) •

---

(١) وصف الله الرسول بقوله « وانك لعلى خلق عظيم » (القلم : ٤)
وفى موضع آخــر :
(وما ارسلناك الا رحمة للعالمين) (الانبياء : ١٠٧)

(٢) اعلن الرسول عند دخوله مكة فاتحا : « من دخل الكعبة فهو آمن ومن دخل داره فهو آمن ، ومن دخل دار ابي سفيان فهو آمن » ،وابو سفيان كان يناصب النبي اشد العداء .
ثم خاطب اهل مكة : « يا اهل مكة ! ما تظنون اني فاعل بكم ؟ » قالوا : خيرا ، اخ كريم وابن اخ كريم . قال : « لا تثريب عليكم اليوم . اذهبوا فأنتم الطلقــاء » .

(٣) عن ابي هريرة ان ابا بكر الصديق رضي الله عنه بعثه في الحجة التي امره النبي (ص) قبل حجة الوداع يوم النحر فى رهط يؤذن فى الناس : « لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان » ــ صحيح البخاري ــ ٢١٢/٥

[المترجــم]

وفى العام العاشر الهجري سار الرسول بنفسه على رأس الحجيج، وعرفت تلك الحجة « بحجة الوداع » ، وفيها نزل عليه الوحي يعلنه أنه ادى رسالة ربه فأدرك الرسول أن أجله قد أقترب • «اليوم اكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام ديناً (سورة المائدة : ٣)•

وأدرك الناس الذين سمعوا خطبة الرسول يوم عرفه فى العام العاشر للهجرة انهم يسمعون خطبته الوداعية ووصيته الاخيرة • ذكر الرسول بني آدم جميعاً ـ واكد عليهم بقوة ـ بالمحبة الاخوية بينهم وبأصلهم المشترك وبالمساواة بينهم لا فضل لواحد على الآخر الا بالتقوى • وامرهم ـ بوضوح وجلاء ـ باحترام الفرد والعائلة وما يملكون، واوصاهم بالنساء خيراً، واوصاهم بالمحافظة على رسالة نبيهم وتبليغها لمن لم يستمع اليها ، اذ قال لهم :

«ايها الناس ،اسمعوا مني ابين لكم فاني لاأدري لعلي لاالقاكم بعدعامي هذا فى موقفي هذا » • وفى النهاية خاطب الحجاج الذين تقاطروا من كل حدب وصوب ، باعداد كبيرة جدا حتى بلغوا الافق وانتشروا فى ارجاء الصحراء الواسعة المترامية ، وقال لهم : فليبلغ الشاهد الغائب فأجابوا « نعم ! نعم !» وعندئذ رفع الرسول (ص) وجهه الى السماء واشار باصابعه ودعا ربه بصوت عال : « الاهل بلغت اللهم فأشهد »(١)•

---

(١) فيما يلي مقتطفات من خطبة الوداع كما وردت فى مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوي والخلافة الراشدة جمع الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي ـ استاذ الحقوق الدولية فى الجامعة العثمانية بحيدر آباد ـ دكن ط ٢ ـ صفحة ٢٨١

بعد ان حمد الله واثنى عليه قال :

«أوصيكم عباد الله بتقوى الله واحثكم على طاعته واستفتح بالذي هو خير ... »

« ايها الناس ! ان دماءكم واموالكم واعراضكم حرام عليكم الى ان تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ـ الا هل بلغت ، اللهم فاشهد ... ».

ولم تمض على خطبة الوداع هذه ثلاثة اشهر حتى توفي النبي وانتقلت روحه الطاهرة الى بارئها ، وكان ذلك فى اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الاول من العام الحادي عشر بعد الهجرة (المصادف ٧ حزيران ٦٣٢م).

كثيرا ما كانت مسألة المعجزات بالنسبة لمحمد (ص) موضوع بحث وجدل . فهل قام الرسول بمعجزة غير القرآن ؟

ان القرآن الذي أعلن على العالم بصوت محمد لمعجزة ، بل انه المعجزة! كل شيء يبرهن على ذلك : اسلوبه ومحتوياته والاحداث غير المألوفة التي أنزل بها ، وبها لقنت آياته ودونت كلماته ، ثم مطابقته الدائمة لحقائق الماضي والحاضر والمستقبل ، وميزة تساميه وترفعه مما لا يدل ابداً على اثر لرجل معين او مجتمع واحد او حقبة من التاريخ او منطقة معينة من الكرة الارضية. وليس القرآن حدثا عابرا فى التاريخ يظهر يوما ويختفي فى اليوم التالي ، ولا شيئاً يتناقله الرواة وحدهم بشيء من الصدق قل او اكثر ، كلا ! بل انه لحقيقة ثابتة راسخة ، باقية على مر العصور وكر الدهور دون ان يطرأ عليها تغيير او تبديل ،وسيظل مثار اعجاب جميع الناس الذين به يتأملون وفيه يفكرون .

« اما بعد ايها الناس : ان الشيطان قد يئس ان يعبد فى ارضكم هذه ولكنه قد رضي ان يطاع فيما سوى ذلك ، مما تحقرون من اعمالكم ، فاحذروه على دينكم .....

« اما بعد ايها الناس : ان لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حق ، لكم عليهن الا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن احدا تكرهونه بيوتكم الا باذنكم ولا يأتين بفاحشة ....

« ايها الناس : انما المؤمنون اخوة ، ولا يحل لامرء ما لاخيه الا عن طيب نفس منه ، الا هل بلغت اللهم فاشهد ..

« ايها الناس : ان ربكم واحد ، وان اباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب . اكرمكم عند الله اتقاكم ، وليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى . ألا هل بلغت ، اللهم فأشهد .»

قالوا « نعم » ، قال : « فليبلغ الشاهد الغائب » .

[المترجم والمراجع]

ليس القرآن مثار دهشة موقتة ، ولا شيئا يخدع العقل ، ولا امراً غريباً
عن المعلومات الجديدة التي بدأت تسيطر على الناس بل انه الحق ، الحق
الذي يبرهن على نفسه . وهو ولا ينطبق على المنطق فحسب بل ويسمو عليه،
وبذا يبرهن على اصله الالهي .

ان الاقرار بكون القرآن هو المعجزة لا ينتقص من قيمة المعجزات
الاخرى المادية والملموسة التي ندركها بحواسنا . فهذه المعجزات ايضا تزيد
من اقناعنا ، وطالما كانت خير وسيلة لتقوية ايماننا ، وهذا ما دعا انبيائنا
الاولين للاتيان بالمعجزات .

فهل كان هذا نفس الشيء مع نبي المسلمين ؟ وهل اتى الرسول (ص)
بمعجزة غير تبليغ القرآن ؟

يميل بعضهم الى الاجابة على هذا السؤال سلبيا ، محاولين ان يجدوا
فى القرآن اثباتا لما ذهبوا اليه . ويقال ان القرآن اعلمنا ان النبي محمداً
(ص) ابى ان يستجيب لاولئك الذين طلبوا منه الاتيان بالمعجزات .

« وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ، او تكون لك
جنة من نخيل وعنب تفجر الانهار خلالها تفجيرا ، او تسقط السماء كما
زعمت علينا كسفا ، او تأتي بالله والملائكة قبيلا ، او يكون لك بيت من زخرف
او ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه قل سبحان
ربي هل كنت الا بشرا رسولا » . (سورة الاسراء : ٩٠—٩٣) .

« وقالوا لولا انزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما انا
نذير مبين ، او لم يكفهم انا انزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ان فى ذلك لرحمة
وذكرى لقوم يؤمنون » .

(سورة العنكبوت : ٥٠—٥١)

وعلى اساس النظرية القائلة بأن محمدا رفض الاتيان بمعجزات فاننا نجد التباسا خطيرا لا في تفسير معنى هذه المقتطفات فحسب ، بل وفي المفهوم الاسلامي لصانع المعجزات على وجه العموم . وهذه المقتطفات لا تنكر امكانية وقوع المعجزة بل انها تشير الى ان المعجزات تأتي من سلطة عليا ، وهي وحدها القادرة على اي نوع من الخلق ، وفوق ذلك خلق الاشياء الخارقة للطبيعة. انها مسألة تعيين الحدود الفاصلة بين القوى الانسانية والقوى الالهية . وليس بالمسلم اسلاما صحيحا من يخلط بين هاتين القوتين معتقدا ان الانبياء انفسهم الذين يصنعون المعجزات ، فليس الانبياء الا بشرا وليس باستطاعتهم التغلب على قوانين الطبيعة ولا قوانين العقل . ان الله وحده ــ لا سواه ــ يستطع اتيان مثل هذا ، اذا شاء ومتى شاء ، وذلك لكي يبرهن على الاصل الالهي للرسالات التي يقوم الانبياء بتبليغها .

ولذا لم يكن موسى هو الذي حول العصا الى حية تسعى فقد كان ذلك التحول مثار دهشته البالغة ، ولا كان عيسى هو الذي احيا الميت بقدرته وانما احياه بقدرة الله . وعندما ابى ان يستجيب الى طلب اولئك الذين سألوه الاتيان بدليل من السماء ، فهل يعني هذا انه لم يعد بقادر على الاتيان بمعجزات ؟ الجواب واضح ، كلا !

وهذا هو الامر بعينه مع محمد (ص) عندما ابى ان يستجيب الى طلبات معينة للكفار . والجواب الذي اعلنه عند عدم امكانه الاتيان بمعجزات هو نفس جوابه بصدد القرآن ، فليس محمد هو الذي وضع القرآن(١) ، ولكنه «الروح الامين» جبريل فهو الذي انزل القرآن من السماء ــ بأمر ربه ــ واودعه في قلب محمد (ص) ليهدي من يؤمن به ويشرح افئدتهم . ولم يكن محمد بقادر على ان يبدل حرفا واحدا منه (٢) .

---

(١) « وما ينطق عن الهوى ــ ان هو الا وحي يوحى » (النجم : ٣ــ٤)

(٢) ولاثبات هذه الحقيقة يقول الله سبحانه وتعالى مشيرا الى النبي ..
« ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين »
(الحاقة : ٤٤ــ٤٦) ــ الوتين نياط القلب وهو عرق متصل به اذا انقطع مات صاحبه .

[المراجع]

ليس هذا فحسب،بل انه لم يكن ليتوقع ان يكون هو بالذات الشخص الذي يهبط عليه الوحي ، ولم يكن ليتأكد من ان الوحي سيستمر فى هبوطه عليه .

وهكذا فليست هناك من معجزة ـ مادية او روحية ـ اصلها من البشر اذ هي ـ على الاطلاق ـ من حق الله وبقدرته[1] . وقد اعلن جميع الانبياء انهم خاضعون لنفس التحديد ، فهم لا يستطيعون ـ ولا الناس الذين بعثوا اليهم ـ ان يطلبوا معجزة ما او استبدال معجزة بأخرى حسبما يرون ، فالله هو الذي يعطي امره لمن يشاء بالطريقة التي يراها هو ملائمة لاقناع اهل اية حقبة من التاريخ او اي عصر من عصور البشرية ، فلكل حقبة كتابها ، ولكل قوم هاد[2].

« ولقد ارسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم ازواجا وذرية ، وما كان لرسول ان يأتي بآية الا باذن الله ، لكل اجل كتاب ». (سوررة الرعد : ٣٨)

تعرف المعجزة فى علم الاصطلاحات الاسلامية فى اغلب الاحيان بأنها حقيقة تخالف القواعد العامة وتعارض المجرى العادي للحوادث وسببها فوق ادراك البشر ، وهي حقيقة تتحدى كل من يرتاب فيها . وعلى هذا فان الحقيقة الوحيدة التي تنطبق عليها جميع هذه الشروط بكل جلاء ووضوح هي ـ بكل تأكيد ـ القرآن الذي طالما نادى وكرر ـ بطرق شتى ـ انه يتحدى جميع الكائنات المنظورة منها وغير المنظورة[3] . وتنبأ بعجزها عن الاثبات بأنه ليس

---

(١) قال تعالى : « وقالوا لولا انزل عليه آيات من ربه ، قل انما الآيات عند الله ، وانما انا نذير مبين » (العنكبوت : ٥٠).

(٢) « ويقول الذين كفروا لولا انزل عليه آية من ربه ، انما انت منذر ، ولكل قوم هاد » (الرعد : ٧)

(٣) اي الانس والجن .

[المترجم]

رسالة اعجاز من الله . لقد طلب اليهم بادىء الامر ان يأتوا بمثله(1) ثم اكتفى منهم بأن يأتوا بعشر سور مثله(2) ، او حتى سورة واحدة من مثله(3)، واخيرا ولو سورة واحدة فيها بعض الشبه لما في القرآن .

ان مسألة اتيان محمد (ص) بمعجزة غير تبليغ القرآن تتوقف على تعريف « المعجزة» . فان كان ذلك يتطلب ذكر التحدي بصراحة فينبغي ان نقول انه ليس في الاسلام معجزة سوى القرآن ، اما اذا استغنينا عن النص الحرفي حول وجوب ذكر التحدي فاننا نجد عددا لا يحصى من المعجزات قام بها النبي .

وبعض هذه المعجزات ورد ذكرها في القرآن الكريم نفسه . منها الاسراء ، وهي الرحلة التي قام بها النبي بوسائل خارقة للطبيعة من مكة الى القدس في لحظة واحدة من الليل . وهي الرحلة التي رأى فيها دلائل الهية كثيرة وميز بوضوح جميع التفاصيل (الطبوغرافية) للامكنة التي مر بها وهي التفاصيل التي ذكرها فيما بعد فأثارت دهشة الجميع : « سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا ، انه هو السميع البصير » (سورة الاسراء : ١) .

ومنها تنبؤه بانشقاق يظهر على سطح القمر وهي ظاهرة سماوية وقعت فعلا بعد تنبؤه بها مباشرة . وشاهدتها الجماهير التي كان النبي يخاطبها .

---

(١) « قل فاتوا بكتاب من عند الله هو اهدى منهما اتبعه ان كنتم صادقين » (القصص : ٤٩)

« قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. (الاسراء : ٨٨).

(٢) « ام يقولون افتراه ، قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين ، فان لم يستجيبوا فاعلموا انما انزل بعلم الله وان لا اله الا هو فهل انتم مسلمون (هود : ١٣ ــ ١٤).

(٣) « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين ، فان لم تفعلوا ــ ولن تفعلوا ــ فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة اعدت للكافرين » (البقرة : ٢٣ــ٢٤) .

[المترجم]

ورآها كذلك وايد وقوعها المسافرون : « اقتربت الساعة وانشق القمر » (سورة القمر : ١) (١)٠

ومنها كذلك معجزة النصر على جيوش اعدائه ، النصر المؤزر الـــذي حققته فئة قليلة مــن اتباعه المؤمنين ــ وهم قلة في العدد والعدة ــ ذلك لان الله كان يؤيدهم بروح مــن عنده : « فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم ، وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » (سورة الانفال : ١٧)(٢)٠

ومجتمع « المدينة المنورة » الذي كان منقسماً على نفسه تتقاذفه الاهواء وتتنازعه الحروب الاهلية وتأكل قلبه البغضاء لعشران السنين اصبح ــ بين عشية وضحاها ــ مجموعة متحدة مــن الاصدقاء الاوفياء ٠ هذا الانقلاب الفكري المفاجيء لا يمكن ان تحققه قوى ارضية(٣)٠

---

(١) حكى السمرقندي عن الضحاك ان ابا جهل قال هذا سحر فابعثوا الى اهل الآفاق حتى تنظروا أراوا ذلك ام لا ، فأخبر اهل الافاق انهم رأوه منشقا فقالوا (يعني الكفار) هذا سحر مستمر .

(الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ــ تاليف القاضي عياض الاندلســـي الجزء الاول ص ١٨٤) .

(٢) ويعني ذلك انتصار المسلمين بقيادة الرسول (ص) في غزوة بدر الكبرى ذلك الانتصار الذي كان معجزة لقلة عدد المسلمين وبالنسبة لعدد قريش .

(٣) قال الله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكـــم تهتـــدون » (سورة آل عمران : ١٠٣)

وقال ايضا : « وان يريدوا ان يخدعوك فان حسبك الله هو الذي ايدك بنصره وبالمؤمنين والف بين قلوبهم لو انفقت ما في الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم انه عزيز حكيم » . (سورة الانفال : ٦٣)

[المترجم]

ومنها كشف النبي عن حقائق سرية كانت قد اخفيت عن علمه بعناية[1] .
تنبؤات كثيرة تحققت ، ومنها اعلان التاريخ المضبوط لنصر قادم يحرزه الروم على الفرس[2] .

ومنها كذلك صدور تقارير صادقة لا حصر لها عن حقائق تاريخية لم تكن معروفة لديه او لدى قومه[3] .

ومن المعجزات الاخرى التي لم يرد لها ذكر فى القرآن تكتفى هنا بذكر القليل فقط . وهذه المعجزات التي قام بها النبي (ص) علنا على مرأى من الناس تنوقلت جيلا بعد جيل على لسان رواة عرف عنهم الصدق والامانة فى رواية التاريخ . وهذه الامثلة مأخوذة من الفصل الاول من «علامات النبوة» للبخاري[4] :

---

(١) «وانزل الله عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما) (سورة النساء : ١١٣) .
وقال عز وجل ايضا : « واذا سر النبي الى بعض ازواجه حديثا ، فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه واعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من انبأك هذا قال نبأني العليم الخبير (سورة التحريم : ٣) .

(٢) « غلبت الروم فى ادنى الارض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين ، لله الامر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن اكثر الناس لا يعلمون » (سورة الروم : ٢ — ٦) .

(٣) قال الله تعالى : « تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا » (سورة هود : ٤٩) .
وقال ايضا : « ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك ؛ وما كنت لديهم اذ اجمعوا امرهم وهم يمكرون » (سورة يوسف : ١٠٢) وقال كذلك : « وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين ، ولكنا انشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر ، وما كنت ثاويا فى اهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين ، وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون» (سورة القصص ٤٤—٤٦) .

(٤) باب علامات النبوة فى الاسلام — الجزء الرابع من صحيح الامام البخاري طبعة مكتبة النهضة الحديثة . بمصر ١٣٧٦ هـ .

[المترجم]

التنبأ بانقراض امبراطوريتي الروم والفرس حال موت امبراطوريهما الذين كانا معاصرين للنبي(١)٠

نعي ملك الحبشة يوم وفاته ٠ تأكيده بان كفار مكة ـ بعد المعركة التي شنها المسلمون عليهم فى العام الخامس للهجرة ـ لن يقوموا بأي عدوان على « المدينة » ، وان المسلمين سيدخلون مكة فاتحين ٠

تنبؤه بأن حفيده الحسن سيعيد للمسلمين وحدتهم وينهي الخصام بين فريقين كبيرين فى الاسلام ـ تلك النبوة التي تحققت ايام معاوية ، الخليفة الخامس(٢)٠

وتلك المعجزة التي طالما تكررت عندما كان يلم بالجند القحط والظمأ فكان النبي (ص) يضع انامله فى وعاء صغير فتحل فيه البركة وينبع منه ماء غزير يروي ظمأ خمسة عشر الف جندي ثم يتوضؤون منه ويسقون ركائبهم(٣)٠

وفى احد ايام الجمعة عندما كان النبي (ص) يخطب فى المسجد قام اعرابي وشكا للنبي الجفاف وعدم سقوط الامطار ، والمجاعة التي قد يؤدي اليها ذلك، فدعا النبي ربه ان ينزل عليهم مطراً ، وما لبثت السماء أن تلبدت بالغيوم وهطل المطر مدرارا ، واستمر فى هطوله حتى يوم الجمعة التالي ٠

---

(١) عن أبي هريرة انه قال : قال رسول الله (ص) اذا هلك كسرى فلا كسرى بعده واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي نفس محمد بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله (صحيح البخاري ٢٤٦/٤) .

(٢) عن ابي بكر رضي الله عنه اخرج النبي (ص) ذات يوم الحسن فصعد به على المنبر فقال ابني هذا سيد ولعل الله ان يصلح به بين فئتين من المسلمين (صحيح البخاري ـ ٢٤٩/٤)

(٣) عطش الناس يوم الحديبية والنبي (ص) بين يديه ركوة فتوضأ فجهش الناس نحوه فقال ما لكم ؟ قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب الا ما بين يديك ، فوضع يده فى الركوة فجعل الماء يثور بين اصابعه كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا . قلت : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة الف لكفانا ،كنا خمس عشرة مائة » . هكذا رواها البخاري فى صحيحه (الجزء الرابع ـ ص ١٥٤) ولعل للمرحوم الاستاذ دراز مرجعا آخر .

[المترجم]

وفى يوم الجمعة التالي وقف نفس الاعرابى وشكا للنبي التلف الـذي سببته الامطار الغزيرة ، فدعا النبي ربه ، وسرعان ما انقشعت الغيوم وعـاد سماء المدينة صافيا(١).

كان النبي يعظ الناس وهو جالس على جذع شجرة مقطوع ثم تحول بعدها الى مقعد اكثر علوا ليتسنى لمستمعيه الذى كان عددهم يتزايد ان يسمعوه جيدا ، وعندئذ سمع الناس جميعا صوت عويل ينبعث مـن ذلك الجذع ، وظل العويل حتى قام النبي (ص) واخذ ذلك الجذع بين يديـه واحتضنه وواساه كما يحتضن الرجل الرضيع(٢).

هذا غيض من فيض من المعجزات الثابتة التي قام بها محمد (ص) نبي الله ورسوله ـ بالاضافة الى تلك المعجزة الكبرى ـ رسالة القرآن .

---

(١) عن أنس رضي الله عنه قال اصاب اهل المدينة قحط على عهـد رسول الله (ص) فبينما هو يخطب يوم جمعة ، اذ قام رجل فقال يا رسول الله هلكت الكراع ، هلكت الشاة فادع الله يسقينا ، فمد يديه ودعا ، قال أنس : وان السماء لمثل الزجاجة ، فهاجت ريح انشأت سحـابا ثم اجتمع ثم ارسلت السماء عزاليها ، فخرجنا نخوض الماء حتى اتينا منازلنا فلم تزل تمطر الى الجمعة الاخرى فقام اليه ذلك الرجل او غيره فقال يا رسول الله تهـدمت البيوت فادع الله يحبسه فتبسم ثم قـال : حوالينا لا علينـا ، فنظرت الى السحاب تصدع حول المدينة كانه اكليل (صحيح البخاري ٤/١٥٥) .

(٢) روى البخاري فى صحيحه (ج٤ ص ١٥٦) ان المسجد كان مسقوفا على جذوع من نخل فكان النبي (ص) اذا خطب يقوم الى جذع منها فلما صنع له المنبر وكان عليه سمع لذلك الجذع صوت كصوت العشار حتى جاء النبي (ص) فوضع يده عليه فسكـن .

[المترجـم]

القرآن الكريم

كان نزول القرآن الكريم اكبر معجزة • نزل على النبي فى آيات غير متساوية الطول ، وفى اوقات مختلفة ، خلال فترة امتدت ثلاث وعشرين سنة •

وكان الرسول كلما تلقى آية من الوحي تلاها على مستمعيه ، وهم بدورهم اعادوا تلاوتها على الجماعات التي كانت مؤلفة من اناس شغوفين بالادب وينتظرون بشوق ولهفة نزول الآيات سواء كانوا من الموالين او الخصوم •

وعندما كان النبي (ص) يملي كل آية جديدة على الكتاب كانوا يعمدون الى تدوينها على اي شيء تقع ايديهم عليه سواء كانت حجارة بيضاء رقيقة او قطعا من الرق او الخشب او الجلد اواي شيء آخر يكون فى متناول ايديهم •

وتحصي الاحاديث النبوية تسعة وعشرين شخصا فى المدينة المنورة عملوا كاتمين لاسرار النبي ، واقل منهم عددا كتابا يدونون السور التي انزلت على النبي فى مكة المكرمة • ولم يأل «الامين» جهدا — منذ البداءة — فى تسجيل ما انزل عليه من الآيات ، حتى ايام الاضطهاد • وكان من بين اولئك الكتاب الذين عملوا على تدوين آيات الله الخلفاء الراشدون : ابو بكر وعمر وعثمان وعلي ثم معاوية •

هكذا عرف كتاب المعلمين الكريم بصورته الشفوية والخطية • وعرفت صورته الشفوية باسم «القرآن» (اي المرتل) ، وصورته الخطية باسم « الكتاب » (اي المخطوط) •

وفى باديء الامر لم توضع الآيات المدونة بالترتيب بل ولم تجمع معاً ذلك لانهم كانوا يتوقعون نزول آيات اخرى • وبمضي الوقت بدأت تنسو مجموعات شتى من الآيات وتكون وحدات مستقلة كما اضيفت آيات اخرى بموجب تعليمات النبي الذي كان يسير حسب اوامر الملاك جبريل • ومع ان النصوص كانت متفرقة هنا وهناك فى صورها الخطية الا انها كانت مرتبة

فى عقل النبي وعقول الامناء : يحفظون كل آية فى مكانها الصحيح من الكتاب. وفى عهد النبي كان هناك مئات من اصحابه ، هم « حفظة القرآن» تخصصوا فى تلاوة الكتاب ومعرفة كل سورة منه فى موضعها الصحيح عن ظهر قلب.

وعند وفاة النبي كان القرآن محفوظا فى عقول الامناء وفى المخطوطات . وكانت كل سورة من القرآن - فى صورته الشفوية - كاملة وفى مكانها الصحيح المعروف بها اليوم ، اما فى صورته الخطية فلم تكن سوى وثائق متفرقة مدونة على مواد مختلفة عديدة . وفى خلال العام التالي لوفاة النبي (ص) لم يقلق أحد بصدد الصورة الخطية للكتاب فقد كان هناك عدد لا يحصى من حفظة القرآن - وكأنهم نسخ حية للقرآن كاملا فى صورته النهائية . وما ان انقضى اول عام على وفاة الرسول حتى كان قد قتل سبعون واحدا من حفظة القرآن فى معركة مع مسيلمة ، النبي الكذاب ، واصبح واضحا ضرورة حماية الكتاب حفظاً له وحرصاً عليه من الضياع ، وذلك بجمع الوثائق الخطية فى كتاب يسهل تداوله والرجوع اليه . وكان عمر اول من فكر بجمع القرآن ، وكان زيد بن ثابت اول من نفذ الفكرة ، وزيد هذا من حفظة القرآن الذي شهد النبي يتلو القرآن لآخر مرة ، وهو رجل عرف بذكائه وكفاءته ونزاهة ذمته وطهارة وجدانه .

وتحت اشراف زيد بن ثابت تم تقرير الصيغة الخطية الصحيحة ، فلم تدرج فيه سوى الآيات التي شهد شاهدا عدل بانهما سمعاها من فم الرسول عند املائه اياها ، وانهما سمعاها كذلك من الرسول فى التلاوة الاخيرة . وتتميز هذه المجموعة الرسمية عن النقل من افواه الناس بالحزم المطلق والشدة الصارمة مما اخرج منه الشروحات بل وعناوين السور . وبعد ان تم تدوين القرآن بصورته النهائية عهد به الى الخليفة الاول ابي بكر . وعهد به هذا الى عمر عندما اوصى اليه بالخلافة . وعهد به عمر - قبل وفاته - الى ابنته حفصة احدى نساء النبي ، لانه لم يكن قد تم اختيار الخليفة الثالث آنذاك .

ان الصيغة الخطية للقرآن وهي المعروفة في العالم يعود تاريخها الى الخليفة الثالث ، عثمان ، الذي اخذ القرآن من حفصة وأمر اربعة من امناء السر ان يكتبوا منه نسخاً بعدد المدن الكبرى في الامبراطورية الاسلامية ، ومنذ ذلك الوقت اصبحت طبعة عثمان هي الطبعة الوحيدة المتداولة في العالم الاسلامي .

منذ الايام الاولى والسؤال يتردد على الالسنة هل ان القرآن من اصل الهي او بشري ؟ والجواب الواضح الصريح الثابت هو ان القرآن من عند الله بالذات ، وهو ليس من كلام النبي في شيء . يشير القرآن الى النبي بصيغة « الضمير الغائب المفرد » او يخاطبه مباشرة فيقول له : يا ايها النبي ، يا ايها الرسول ، انا اوحينا اليك ، انا بعثناك ، افعل ، اقرأ ..» .

هذه هي لغة القرآن .

ان البرهان المباشر على ان القرآن من عند الله يتضح جليا من بين ثنايا الكتاب نفسه[1] ، ويبدو ذلك من الظاهرة الخاصة التي كانت ترافق تنزيل القرآن كما شهدت بذلك الاحاديث الصحيحة . ان الذين عاصروا النبي يشهدون على العلامات المرئية والملموسة والمسموعة للظواهر الغامضة التي كانت ترافق التنزيل مما يثبت المصدر الحقيقي للقرآن ويفتح عيون الباحثين عن الحقيقة ، ففي حضور روح التنزيل (جبريل) كان وجه النبي يتألق كأنه مرآة صافية ، ويخيم الصمت ، وينقطع الحديث ويبدو الرسول كأنه شارد الفكر ، ويرتخي جسده كأنه في سبات ، ويسمع حواليه ازيز غريب ، كذلك الازيز الذي تحمله اسلاك الهاتف بحيث لا يسمعه واضحا ويتفهمه سوى من

---

(1) « آلر ، كتاب انزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور باذن ربهم الى صراط العزيز الحميد » (ابراهيم : ١) . وقال الله تعالى : « قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين » (النحل : ١٠٢) . وقال ايضا : « وانه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين » (الشعراء : ١٩٢-١٩٤) .

[المترجم]

بنتصت عليه ، ولم تكن هذه الظاهرة طوع اختياره او بمحض ارادته ، اذ لم يكن بقادر على تجنبها اذا وقعت ، ولا على تهيئتها ان أراد تلقي رسالة سماوية • وكثيرا ما كان النبي (ص) يطلب الوحي دون ان يجاب الى طلبه ، واحيانا كان ينقضي شهر او اكثر حتى تقع هذه الظواهر العجيبة ، تأتي فجأة وتختفي بغتة ، يستمع الحاضرون بعدها الى آيات رائعة(١) •

ان اسلوب الكتاب الادبي ومحتوياته لبرهان قاطع على ان القرآن من عند الله ، ولكن قبل النظر فى ذلك البرهان فلنلتفت الى الجدل الذي يحاولون به التدليل على ان القرآن اصله من الانسان ، وانه لمما يشرف الاسلام أن يكون القرآن قد سجل جميع الافتراضات ــ المعقولة منها وغير المعقولة ــ التي حاول معاصرو الرسول اثبات مزاعمهم بوساطتها من ان القرآن اصله من الانسان ، فلو كان اصله من الانسان لوجب ان يكون من بيئة محمد جاء من اديان اخرى فى تلك البيئة ، او من تأمل وخواطر ذلك الانسان الذي الفه • فلنفحص اذن فعاليات النبي قبل ان يبعث رسولا ، وخلال فترة رسالته ، لنرى ما يمكن ان يكون قد تعلم من المحيطين به اومن تأملاته الخاصة •

لا حاجة بنا للقول بأنه لم يكن هناك بين عقائد اهل مكة وطقوسهم ــ فى بدء الاسلام ــ وبين تعاليم القرآن اي شبه، وليست هناك علاقة بين نظام التوحيد المطلق ــ وهو اكمل فلسفة خلقية واتقاها جاء بها كتاب المسلمين المقدس ــ وبين الجهل والوثنية وخزعبلات عبادة الاصنام وطغيان المادة ووأد

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها ان الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله (ص) فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ، فقال رسول الله (ص) أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو اشده علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، واحيانا يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول . قالت عائشة رضي الله عنها ولقد رأيته ينزل عليه الوحي فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وان جبينه ليتفصد عرقا .

(التجريد الصحيح لاحاديث الجامع الصحيح ــ ١/٥)

[المترجم]

البنات ومضاجعة المحارم (الاهل المحرم الزواج بهن) واكراه الفتيات على الزواج للاستيلاء على صداقهن ، واكل اموال اليتامى ، وعدم الاكتراث بالفقراء واحتقار الضعفاء ، وهي ما كانت تتميز به مكة فى تلك الايام .

لقد بذلت جهود لاظهار تعاليم القرآن مماثلة لتعاليم الصابئة ، وهي طائفة عرفت فى مكة فى ذلك الحين ، ولكن الصابئة كانوا وثنيين مشركين يعبدون النجوم والملائكة ، طقوسهم مزيج من الوثنية والمسيحية والمذاهب الاخرى ، وكانوا يحجون ، لا الى الكعبة ، ولكن الى حران فى العراق[1] وصلواتهم للنجوم عند بزوغ الشمس وعند الظهر وعند المغيب، وهي الاوقات الثلاثة التي يحرم الاسلام فيها الصلاة[2].

وزعموا ايضا ان محمدا (ص) ربما تأثر بالجوابين والمهاجرين الذين وفدوا الى مكة ، منهم الاحباش والروم، العمال وتجار الخمور، ومن الواضح ان شخصية الرسول لم تتعرف الى طبقة السوقة من المهاجرين ذلك لان النبي

---

(١) حران : مدينة تقع اليوم داخل الحدود التركية من شمال سوريا ، وقد كانت منذ الالف الثالث ق.م تحتل مكانة دينية بارزة فى شمال بلاد وادي الرافدين ، وكانت مركزا لعبادة الاله القمر (سن) . وعند الفتح الاسلامي للعراق تجمع فيها الصابئة الذين نزحوا اليها من جنوبي العراق (منطقة السواد) واتخذوها مركزا لعبادتهم ثم عادوا فنزحوا منها فى عهد المأمون عندما نكل بهم .
وكتب عنها ياقوت الحموي فى (معجم البلدان : ج ٣ ص ٢٤١ — ٢٤٢) انها « مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة امور وهي قصبة ديار مضر بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان وهي على طريق الموصل والشام والروم ... وكانت منازل الصابئة وهم الحرنانيون الذين يذكرهم اصحاب كتب الملل والنحل ... (والنسبة الى حران « حرناني» على غير قياس) . وكتب عنها الاستاذ احمد امين فى كتابه «فجر الاسلام ط٧/١٣» انها كانت اشهر مراكز الوثنية السريانية وظلت مركزا للديانة الوثنية والثقافة اليونانية الى مابعد الاسلام.

(٢) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله (ص) لاتحروا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها . قال ابن عمر : وقال رسول الله (ص) اذا طلع حاجب الشمس فأخروا الصلاة حتى ترتفع ، واذا غاب حاجب الشمس فأخروا الصلاة حتى تغيب. (التجريد الصحيح لاحاديث الجامع الصحيح ـ ١/٥٣).

[المترجم]

عاش : اما وحيدا فى عزلة تامة ، او يرعى الغنم ، او تاجرا كبيرا يروح ويعدو مع القوافل ، او فى المجتمع الراقي مــن قادة المجتمع وزعمائه • وعلى فرض انه كان على اتصال بامثال اولئك الناس فقد كان واضحا انهم على جهل بالاديان ، وان لغتهم الاجنبية تجعل الاتصال بهم كما ورد فى القرآن أمرا مستحيلا(١) •

وزعموا ايضا ان محمدا (ص) تعرف فى رحلاته بالقبائل العربيـــة التي دانت بالمسيحية ومنها اخذ آراءه • ويذهب كثير من العلماء ، القدامى منهم والمحدثين ، الى ان مثل هذا الاتصال مع المسيحية امر غير محتمل • بل لو افترضنا وقوعه فان المسيحية التي كانت سائدة فى تلك الرقعة مــن العالم لم تكن تتميز بشيء عــن الوثنية • لقد قال الخليفة الرابع ، علي ، ان قبيلة تغلب لم تأخذ مــن المسيحية سوى عادة شرب الخمر ، وحيثما تنقل محمد فى رحلاته وجد معتقدات ينبغي تقويمها ، وانحرافات يجب اعادتهــا للطريق السوي • ولم يعثر مطلقا على نموذج ادبي او ديني يمكن ان يقتدي به او يتخذ ه مثلا فى اصلاحاته •

وزعموا ثانية ان النبي (ص) اخذ تعاليمه مــن قراءته للكتب التــي سجلت تنزيلات سماوية سابقة • ولكن القرآن ينكر انكــاراً جازما قاطعــا ان محمدا كان يعرف القراءة او الكتابة(٢) • وبالاضافة لذلك لم يكن الانجيل قد نقل الى العربية حتى قرون عديدة بعد عصر النبي ، ولم يكــن الانجيل كذلك باللغات الاخرى فى متناول عامة الناس • وكانت تلك الآراء القليلة التي

---

(١) قال الله تعالى : « ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون اليه اعجمي ، وهذا لسان عربي مبين » (سورة النحل : ١٠٣) •

(٢) قال الله تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذن لارتاب المبطلون » (العنكبوت : ٤٨) •
وقال ايضا : « الذين يتبعون الرسول النبي الامي » (الاعراف : ١٥٧) ، وكذلك : « هو الذي بعث فى الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » (الجمعة ٢:) •
[المترجم]

كانت متداولة بين عامة الناس والمأخوذة من الانجيل غامضة مبهمة واكثرها يناقض بعضها بعضا ، حتى لا يصح ان يتخذ اساسا لهذه الدقة والاتساع والوحدة والقوة الموجودة فى مادة القرآن .

ولا يمكن كذلك قبول مزاعمهم بان محمدا (ص) كان قد تأثر بتعاليم اليهود بعد هجرته للمدينة المنورة حيث اتصل مع أحبار اليهود ، فالتاريخ المقدس ـ بجميع تفاصيله الصحيحة ـ كان قد انزل على محمد (ص) فى السور المكية قبل هجرته الى المدينة . وأدان القرآن من آمن بأسفار موسى الخمسة بانهم اتباع الشيطان أغواهم وأضلهم فهم غير جديرين بان يكونوا قدوة أو أسوة حسنة يحتذى بهم(١) . ويذهب القرآن فى سوره المدنية فيدين اتباع اسفار موسى(٢) . وقد جعلت الحالات النفسية لكلا الفريقين تأثير اليهود على الفكر الاسلامي امرا مستحيلا فى الواقع ، واتخذت أغلبية أحبار اليهود موقفاً عدائيا أبعد ما يكون عن اريحية المعلمين وحبهم للخير . اما اولئك العلماء الاسرائيليون الذين لم يظهروا محاباة او تحيزا فقد رحبوا بالنبي فى المدينة المنورة ترحيبا حارا واعلنوا اعتناقهم للدين الاسلامي ، واعترفوا به فيما بعد هاديا لهم . وبين هاتين الطبقتين من الذين ناصبوه العداء أو اتبعوه مستسلمين ، لم يكن هناك مكان لطبقة ثالثة من المعلمين الاصدقاء .

وهكذا يتضح انه لا يمكن ان نعزو القرآن الى تأثير البيئة على محمد . ويظل هناك سؤال واحد ، فيما اذا كان هو الذي وضع القرآن عن طريق التأمل والتفكير واستخدام المنطق . والمنطق ـ الى حد ما ـ يستطيع ان يكشف زيف الوثنية وسخافة الخزعبلات ، ولكن أنى له ان

---

(١) قال الله تعالى : « تالله لقد ارسلنا الى امم من قبلك فزين لهم الشيطان اعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب اليم » (النحل : ٦٣)

(٢) يقول الله عز وجل : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت ايديهم وويل لهم مما يكسبون (سورة البقرة : ٧٩) .

[المترجم]

يعرف كيف يستعيض عنها بديلاً ؟ ان الحقائق لا يمكن ان تعرف بالتفكير المجرد ، ولا الاحداث الماضية يمكن ان توصف بالتأمل وحده ، ومع هذا فالقرآن يطابق التوراة دائما فى المعلومات الاساسية ، حتى تلك التي اخفاها الاحبار عن محمد (ص) . والفطنة وحدها لا يمكن ان تأتي بأمثال تلك التفاصيل . والقرآن يؤكد ان محمداً لم يكن يعرف ــ قبل نزول الوحي عليه ــ اي كتاب ، حتى ولا معنى الايمان(١) . ومن المحتمل انه لم يكن بقادر على هداية الآخرين لانه لم يكن ليعرف كيف يهدي نفسه فى أمور الدين ، فقد كان يجهل جميع التفاصيل التشريعية والادبية والاجتماعية وما يتعلق بالشعائر ، وهي التفاصيل التي وردت فى تنزيل القرآن . واستطاع محمد ان يعرف الاله الخالق والصفات الالهية ، لا باستخدام المنطق او دراسة الكتب ، ولكن عن طريق الوحي فقط . واستطاع ان يعرف العلاقة بين الله وبين العوالم المرئية منها وغير المرئية ، وان يعين المصير الذي قدر للانسان بعد وفاته ، وذلك كما أوحي اليه به .

لقد رأينا كيف ان القرآن لا يمكن ان يكون له اصل من البشر يقتفى أثره سواء من خبرة محمد فى بيئة عصره او من قدرته على انشاء الكتاب الكريم باستخدام المنطق . ورأينا ان القرآن أصله من السماء بدليل الظواهر الغريبة الغامضة التي كانت تسبق دائما الوحي . والآن لنمعن النظر اكثر وندرس البينة الداخلية التي تثبت ان القرآن من اصل الهي ، وذلك من محتويات القرآن واسلوبه الأدبي .

يتميز الاسلوب الادبي للقرآن تميزاً واضحا عن جميع الأساليب الاخرى سواء أساليب الشعر أو النثر ، العادي منه او السجع ، كما يتميز بجلاء ووضوح عن اساليب عامة الناس أو اسلوب محمد بالذات . وعرف

---

(١) قال الله تعالى : « وكذلك اوحينا اليك روحاً من امرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدي الى صراط مستقيم ». (سورة الشورى : ٥٢).
[المترجم]

محمد ببلاغته وفصاحته النادرة ، عرفناها عن طريق احاديثه العديدة التي تفوه بها بعد تفكير وروية ، أو أملاها خارج نطاق القرآن . وفي تلك الاحاديث النبوية جمعاء لا نجد شبها — مهما كان ضئيلا — بينهما وبين الآيات القرآنية التي انزلت عليه .

اننا نشعر بقوة التسامي في تلك الآيات المنزلة حتى انها تتغلغل في نفوسنا . واعتبر الكفار في عهد النبي اسلوب تلك الآيات ظاهرة غير عادية حتى انهم دعوه سحرا[1] ، بل ان الذين يفهمون العربية في ايامنا هذه يشهدون بميزته السامية الرفيعة دون ان يستطيعوا فهم اعجازها .

وفي محاضراتنا في الجامع الازهر بالقاهرة — وهو اقدم جامعة في العالم — عن تفسير القرآن نتبع التحليل التالي لنشير الى الطرق التي يتفوق فيها اسلوب القرآن الادبي ويسمو على قوى الانسان ويتحدى التقليد :

اسلوب القرآن لا يعكس نعومة ابناء المدن الذين اعتادوا الجلوس ، ولا خشونة أهل البادية الذين الفوا الحل والترحال . انه يستحوذ — بمقاييس صحيحة — على سلاسة الاولين وجزالة الآخرين .

ووزن المقاطع (في القرآن) اكثر مما في النثر ، واقل مما في الشعر ، والوقفة فيه ليست كوقفة النثر ولا كوقفة الشعر ، لكنها ذات تناسق فيه انسجام وفيه ايقاع[2] .

---

(١) « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين » (الاحقاف : ٧) .

(٢) يتحدث الدكتور طه حسين عن اسلوب القرآن فيقول : « ان القرآن ليس نثرا ، كما انه ليس بشعر ، انما هو قرآن ، ولا يمكن ان يسمى بغير هذا الاسم ، ليس شعرا وهذا واضح فهو لم يقيد بقيود الشعر ، وليس نثرا لانه مقيد بقيود خاصة به لا توجد في غيره ، وهي هذه القيود التي يتصل بعضها بأواخر الآيات وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة » (من كتاب « حديث الشعر والنثر » — ص ٢٥) .

اما الدكتور زكي مبارك فيرى ان القرآن نثر فني ، ويرد على الدكتور طه

والكلمات فيه مختارة ، غير مبتذلة ولا مستهجنة ، لكنها رفيعة رائعة معبرة .
والجمل فيه ركبت بشكل رائع حتى ان اقل عدد من الكلمات تعبر عن اوسع المعاني واغزرها .
ان تعابيره موجزة لكنها مدهشة فى وضوحها حتى ان اقل الناس حظا من التعليم يستطيع فهم القرآن دونما صعوبة .
وهناك — فى نفس الوقت — عمق ومرونة وايحاء واشعاع فى القرآن مما يصلح ان يكون اساسا لمباديء وقوانين العلوم والآداب الاسلامية وفلسفة الالهيات ومذاهب الفقه . وفى كل حالة يكاد من المستحيل الاقتصار فى تفسير أية آية على معنى واحد ، سواء فى العربية او فى اية لغة اجنبية ، مهما بذل فى سبيل ذلك من عناية قصوى .

حسين فى كتابه « النثر فى القرن الرابع » (الجزء الاول — ص ٣٨) فيقول:
« اما الدكتور طه حسين فقد اهتدى الى مخرج لطيف ، وذلك اعلانه اخيرا فى دروسه بالجامعة المصرية ان القرآن لا هو شعر ولا هو نثر وانما هو قرآن .. » ويستطرد الدكتور زكي مبارك فى الاستدلال على ان «القرآن شاهد من شواهد النثر الفني » وانه « يعطي صورة صحيحة من النثر الفني لعهد الجاهلية ، لانه نزل لهداية اولئك الجاهلين ، وهم لا يخاطبون بغير ما يفهمون ... وفى القرآن نص صريح على ان الرسول لا يرسل (الا بلسان قومه ليبين لهم) (الآية الكريمة هي : « وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم » ابراهيم : ٤) وقد نزل القرآن بلغة العرب ففهموه اصدق فهم ، ووصل الى قرارة نفوس المؤمنين فملأها روحا ويقينا .. أفكان شيء من ذلك يقع لو نزل القرآن باساليب لا يفقهها أهل الجاهلية ؟
والقرآن ليس بشعر ، لانه خال من القوافي والاوزان وهذا موضع اتفاق . ولكن ايمكن القول بانه ليس بنثر ايضا كما يتوهم الدكتور طه حسين ؟ وليت شعري لمن يقال هذا الكلام ! ... ايقال لمؤرخي اللغة العربية ؟ كيف وهم متفقون على ان القرآن كلام منثور وان تفرد ببعض الخصائص والميزات ....
والخلاصة ان القرآن نثر ، وانه دليل على ان العرب كان عندهم نثر فني قبل الاسلام فكان لهم بذلك وجود ادبي متين .. » .
(الجزء الاول — ص ٣٨ — ٤٣).

[المترجم والمراجع]

وان كلام القرآن ليبدو فوق طاقة البشر فى سمو قانونه النفسي ، فالعقل والعاطفة لا يتجانسان معا ، ولكننا نجد فى القرآن تجانسا وانسجاما بديعين بين القوتين المتضاربتين : قوتي العقل والعاطفة ، ففي الاخبار والمجادلات والعقائد والقوانين والمبادىء الادبية الواردة فيه نجد للكلمات قوة الاقناع بالعقل والتأثير على العاطفة . والقرآن كله جلال ومهابة وخشوع لا يضيره شيء .

وأخيراً فاننا عندما ننتقل من تركيب جملة او مجموعة من الجمل ذات الموضوع الواحد الى تركيب السورة وتركيب القرآن كمجموع ، نجد شيئا جديداً بالمرة لا يمكن ان يكون من صنع الانسان .

اننا نعلم ان القرآن أنزل فى اجزاء قصيرة ، واخرى طويلة ، خلال مدة ثلاث وعشرين سنة، وانها رتبت ــ لا بالتسلسل الزمني ولا حسب موضوعاتها ــ ولكن بطريقة مستقلة معقدة ، تبدو كأنها مفروضة . وكانت كلما نزلت آية وضعت فى مكانها المعين واعطيت رقمها بين السور ، دون ان يطرأ على موضعها منذ ذلك الحين اي تغيير او تبديل . وهكذا فلكل آية ترتيبان : الاول بمقتضى التسلسل الزمني على اساس تاريخ نزولها ، والثاني ترتيبها كما تظهر فيه فى كيان الكتاب . وقد ظل هذان الترتيبان مرعيين بدقة لكل آية ، وكل سورة ، والكتاب بأجمعه طيلة مدة التنزيل .

وفى ترتيب التسلسل الزمني كان كل تنزيل يطابق حاجة الساعة ويرتبط مع سابقه ولاحقه فى التعليم والتشريع بشكل تدريجي . وعلى سبيل المثال فهذا هو المنهج الاساسي للمراحل المتوالية ، فهو يبدأ بالامر البسيط «اقرأ» (سورة العلق:١) . ثم تتدرج الى تكليف الرسول: «قم فأنذر» (المدثر : ٢) ، ثم دعوة الاقربين باديء ذي بدء : «وأنذر عشيرتك الاقربين»(الشعراء : ٢١٤) وامتدت الدعوة بعدئذ الى ابناء المدينة جميعا : « وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى امها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مهلكي القرى الا واهلها

ظالمون » (القصص : ٥٩) ، فالى ابناء المدن المجاورة : « وهذا كتاب انزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها ..» (الانعام : ٩٢) ، واخيرا الى بني البشر جميعا : « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين (الانبياء : ١٠٧) . وخذ كذلك المنهج العام لتطور التعاليم بقسميها الكبيرين : الأسس الجوهرية للكتاب فى السور المكية أولا ، ثم شرح وتطبيق تلك المبادىء العامة فى السور المدنية . واستمر هذا المجرى الطويل للاحداث منذ يوم غار حراء عندما أنذر محمد (ص) ببساطة انه سيتلقى تنزيلا الهيا ، حتى يوم حجة الوداع عندما علم ان مهمته قد انتهت ولم يعد له شيء آخر على وجه الارض يؤديه . وبعد ان تلقى الوحي طيلة ثلاث وعشرين سنة قبضه الله اليه .

وهكذا لم يكن فى القرآن شيء مرتجل ، بل كل ما فيه كان معروفا من قبل ومصاغا فى مجموعه وتفصيله ، من أوله الى آخره ، بما فى ذلك وفاة النبي . من كان يستطيع ان يصوغ تلك الخطة الكاملة وينفذها ؟ من لذلك سوى الله — الذي بعث بهذه المهمة السماوية ؟

وبالاضافة الى ترتيب السور حسب التسلسل الزمني ، هناك ترتيبها حسب موضعها فى القرآن . وهذه الآيات التي جاءت فى الترتيب الزمني وفق أحكم طريقة علمية ، أخذت من مواضعها ووضعت فى امكنتها الحالية ، كل آية فى أطار واضح جعل خصيصا لها ، حتى جاءت هذه السور متباينة الطول . ومما يعطيها هذه الروعة البالغة أنها كانت ، حالما تكمل كل سورة بجمع تلك الاجزاء المتفرقة ، تصبح وحدة كاملة فنيا ولغويا ومنطقيا . وانك لتسمع خلال اجزاء الكتاب — على التساوي — ايقاعا موسيقيا خاصا . وهناك الاسلوب المشترك المنسجم والخطة المنطقية فى تطور الآراء الواردة فى الكتاب .

ومن الواضح ان المؤلف الذي يريد أن يوجد هذه الخطة عليه ألا يدرك سلفا — القضايا التي قد تنجم عن الاحداث خلال الثلاث والعشرين سنة

القادمة وحلولها فحسب — بل الاسلوب الادبي والنغم الموسيقي والايقاع الذي يجب ان يستعمل ، والكيــان الملائم لجميع التنزيلات التي ستأتي ، والمكان الصحيح الذي يجب ان توضع كل آية فيه داخل هذا الاطار .

وعلينا أن نقر ونعترف بأن ليس هناك انسان أو أي مخلوق آخر بقادر على معرفة المستقبل بمثل هذه التفاصيل أو على الاتيان بمثل هذا الكتاب ، وليس هناك من يستطيع ابداع القرآن سوى الله العليم الخبير .

ان تعاليم القرآن موجهة للعالم بأسره ، فهي للناس فى شتى ارجاء العالم كافة بغض النظر عن أصلهم ، أنزلت اليهم لتدخل السرور والبهجة الى قلوبهم وتطهر نفوسهم وتهذب اخلاقهــم وتوحد مجتمعهم وتستبدل سطوة القوي بالعدل والاخوة . وقد أكد الله عز وجل ان فى القرآن حلولا لجميع قضايا البشر : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء ، وهدى ورحمــة وبشرى للمسلمين » (النحل : ٨٩) .

يعالج القرآن — قبل كل شيء — الحق الاسمى والفضيلة . وكل ما تبقى من محتوياته ونصوصــه — كمعرفة الروح وعلــوم طبيعة السموات والارض ، والتاريخ ، والنبوة ، والنذر ، وما شابه ذلك — ليست ســوى وسائل لتقوية رسالة القرآن واعطائها وزنا اكبر واقناعا أشد . لقد اشار الغزالي — الفيلسوف الديني الكبير المتوفى عام ٥٠٥ هـ (١١١١م) فى كتابه « جواهر القرآن» الى أن ٧٦٣ آية تبحث فى المعرفة و ٧٤١ آية فى الهداية للفضيلة . وهذه الالف وخمسماية وأربع آيات تمثل — فى نظره — اثمن ما فى الكتاب ، وما تبقى — وهي ٥١٢ آية — بمثابة « المظروف » أو « الصدفة » التــي تغلف تلك الجواهر (اي التعاليم) .

وفى القرآن ان الايمان يجب ان يشمل هذه العناصر الثلاث :

الايمان بالله ،

والايمان برسالات الله الموجهة الى البشرية ،

والايمان بيوم القيامة .

ونقطة البداءة فى الاسلام هي الايمان بالله ، العلي القدير ، الرحمن الرحيم ، خالق كل شيء ، الواحد الاحد الذي تجب عبادته • وفى سبيل اقناع المشركين لاقرار هذا التوحيد المطلق فالنقطة الاساسية فى الموضوع هي مسألة من تجب عبادته • يشير القرآن فى كثير من المواضع الى ان الكفار يعترفون بأن ليس هناك سوى خالق واحد(١) ومدبر واحد للكون : « ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم »(الزخرف:٩)، ولكن غلطتهم التي لا تغتفر هي انهم فى عبادتهم يشركون مع الله آلهة اخرى زاعمين ان هذه الالهة الثانوية قادرة على التشفع لهم لديه وكسب عطفه ورضاه(٢) • والقرآن يعتمد فى مناقشاته على المنطق واحاديث الانبياء ليعيد المشركين الضالين الى حظيرة التوحيد •

والقرآن — فى مناقشاته المنطقية الموجهة الى المشركين — يؤكد على اتفاقهم فى ان الخلق والعناية من شأن الله وحده ، ويحاول اقناعهم بعبادة الله وحده دون سواه ، فكيف يجوز ان نساوي بين الخالق والمخلوق ؟ وهل

---

(١) قال الله تعالى فى سورة العنكبوت : « ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ، فانى يؤفكون » (آية : ٦١) ، « ولئن سألتهم من نزل من السماء ماءً فأحيا به الارض بعد موتها ليقولن الله ، قل الحمد لله ، بل اكثرهم لا يعقلون (آية : ٦٣) .

(٢) قال تعالى فى سورة البقرة : » ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا اشد حبا لله ، ولو يرى الذين ظلموا اذ يرون العذاب ان القوة لله جميعا . وان الله شديد العذاب » (آية ١٦٥).

وقال فى سورة يونس : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبؤون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الارض سبحانه وتعالى عما يشركون » (آية : ١٨) ، « ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين اشركوا مكانكم انتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم ايانا تعبدون .» (آية : ٢٨) وفى سورة الانعام : « ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين اشركوا اين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون » (آية : ٢٢) ، وفى سورة القصص : «ويوم يناديهم فيقول اين شركائي الذين كنتم تزعمون»(آية٦٢) . وفى سورة الزمر «مانعبدهم الاليقربونا الى اللهزلفى» (آية ٣) .

[المترجم]

من المعقول ان يتساوى الكائن الذي لم يخلق شيئا مع من خلق كل شيء ؟
« أفمن يخلق كمن لا يخلق ، أفلا تذكرون » (سورة النحل : ١٧) ، أوليس
من السخف ان ندعو من لا يستجيب لنا ، بل ومن لا يسمع دعاءنا ؟ « ومن
أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن
دعائهم غافلون » (سورة الاحقاف : ٥) . أليس من الجحود ان ننسى الرحمن
الرحيم الذي يمنحنا السعادة ويهبنا الخير ، وهو العلي القدير الذي اليه نبتهل
وتتضرع ، عندما تلم بنا الشدائد وتحيق بنا المصائب ؟ أليس من العقوق ان
نشرك به من لا يستطيع خيرا ولا شرا ؟ « وما بكم من نعمة فمن الله ثم اذا
مسكم الضر فاليه تجأرون ، ثم اذا كشف الضر عنكم اذا فريق منكم بربهم
يشركون » (النحل : ٥٣ ـ ٥٤)(١) واخيرا فان اولئك المشركين الذين
يزعمون ان امرءا ما ، أو قديسا ، أو أي مخلوق آخر يستطيع التشفع لدى
الله عز وجل عليهم ان يبرهنوا على امكانية ذلك . « الله لا اله الا هو الحي
القيوم» (البقرة : ٢٥٥)،« ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه اولياء،
ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ،ان الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون»
(الزمر:٣)، «ولو أن قرآنا سيرت به الجبال او قطعت به الارض أو كلم به الموتى
بل لله الامر جميعا، أفلم ييأس الذين آمنوا ان لو يشاء الله لهدى الناس جميعا،
ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى
يأتي وعد الله ان الله لا يخلف الميعاد » . (الرعد : ٣٣).

---

(١) قال عز وجل : « قل من رب السموات والارض قل الله ،قل افاتخذ تم من دونه اولياء لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا ، قل هل يستوى الاعمى والبصير ، ام هل تستوى الظلمات والنور ...» (الرعد : ١٦) .
وقال ايضا « .. امن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض ، ءاله مع الله ، قليلا ما تذكرون » (النمل : ٦٢) وفي نفس السورة آيات كثيرة بهذا المعنى (راجع الآيات : ٥٩ ـ ٦٥).

[المترجم]

وبالاضافة الى المناقشات المنطقية ضد عبادة الاوثان فان القرآن يشير الى الشهادة الاجماعية لاحاديث الانبياء : « وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون » (الانبياء : ٢٥) ، « وأسأل من ارسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون » (الزخرف : ٤٥) .

ان نقطة البداءة فى الايمان هي الايمان بالله فاطر السموات والارض ، الرحمن الرحيم ، الذي لا يعبد سواه ، ومع هذا علينا ان نعترف بأن الله هو المشرع ، وانه هو الذي يسيرنا ويتحكم فى اعمالنا ومشاعرنا ، وعلينا طاعته والانابة اليه ، وبامكاننا معرفة هذا القول الحق بالذكاء الفطري والعقل والادراك ، وكذلك بتوكيد القرآن له ، فلقد وهب الله الانسان قوة فطرية يميز بها الطيب من الخبيث : والعدل من الظلم : « ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها » (الشمس : ٧ — ٨) . ولكن التجارب أثبتت فى جميع العصور أن العواطف والانهماك فى الامور الدنيوية والمادية تصرف احيانا اذهاننا عن أرفع المثل العليا وأسماها ، وتؤدي بنا الى احكام خاطئة واغلاط عملية ، ولذا فان رحمة الله لم تتركنا لذكائنا الفطري وحده . لقد دعم الله ذكاءنا الفطري بما أنزل الينا من آيات بينات وما ضرب لنا من أمثال، وذلك ليعصمنا من الزلل ويحول بيننا وبين التخلي عن مسؤلياتنا : « ولقد انزلنا اليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين » (سورة النور : ٣٥).

وفى سبيل تعريف الناس بأوامر الله دون الركون الى العقل وحده ، اختار الله من بين الناس والملائكة من هو جدير بتلقي النور الالهي وتبليغه للناس ، وبعث فى كل امة أو عشيرة رسولا يعلمهم وينذرهم : « ولقد بعثنا فى كل امة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » (النحل : ٣٦) . والذين يأبون الايمان بأي ناطق بلسان الله يأبون الايمان بالله ذاته ، اذ ان كل رسول من رسل الله انما جاء برسالته من

عند الله : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوي عزيز » (الحديد : ٢٥) .

ان العنصرين الاساسيين فى العقيدة الاسلامية ــ وهما الايمان بالله والايمان برسله ــ لا يكتملان الا بالعنصر الثالث ــ وهو الايمان باليوم الآخر، فالله هو الخالق ، فاطر السموات والارض ، وهو المشرع ، وهو احكم الحاكمين ، هو الاول والآخر ، واليه يجب ان يقدم الناس حسابا عن أعمالهم، ومنه ينالون ثوابهم جزاء ما جنت ايديهم : « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم ، ان الله سريع الحساب » (سورة غافر : ١٦) ، « هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » (الحديد : ٣) ، « واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » (البقرة : ٢٨١)(١) . والاعتقاد بالحياة بعد الموت يتضمن الاعتقاد ببعث الروح ونشر الجسد . ولم يثر الاعتقاد فى بعث الروح صعوبات ، ولكن الملحدين اعترضوا ساخرين متهكمين على فكرة نشر الجسد : « فأتوا بآبائنا ان كنتم صادقين » (الدخان : ٣٦) .

ولقد عارض القرآن هذا التعليل السطحي بان اشار الى الحجة التي تبدو من الطبيعة فذكر كيف ان الارض تكون فى وقت ما ميتة جافة فاذا بها حية خصبة (سورة الحج : ٥ ــ ٧ ، وسورة الروم ٥٠)(٢) . وقرر

---

(١) « وأن الى ربك المنتهى» (النجم : ٤٢) ، « ان الى ربك الرجعى » العلق : ٨) ، « انه هو يبديء ويعيد » (البروج : ١٣) ، (ولله مافى السموات وما فى الارض ، والى الله ترجع الامور (آل عمران : ١٠٩) ، «زعم الذين كفروا ان لن يبعثوا ، قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم ، وذلك على الله يسير» (التغابن : ٧) ، « وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين، هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون » . (الصافات ٢٠ــ٢١).

(٢) قال الله تعالى فى سورة الحج : « ... وترى الارض هامدة ، فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بان الله هو الحق، وانه يحيى الموتى، وانه على كل شيء قدير ، وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله

القرآن ان البعث ليس أمراً ممكنا فحسب ، بل انـه لا ريب فيه ، ذلـك لانه وعد الله ، ولان الحكمة والانصاف تستلزمان وجوده لينال كل مخلوق جزاءا وفاقا لما قدمت يداه ، ولو لا ذلك لكان خلق الانسان عبثا لا طائل منه: « أفحسبتم انما خلقناكم عبثا ، وانكم الينا لا ترجعون » (المؤمنون : ١١٥) ، وينبغي الا يظـن ان الصالح والطالـح من بني الانسـان سينالان نفس الجزاء فيوهبان حياة متشابهة ، ومماتا متشابها : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون » (الجاثية : ٢١) اذ ان العدالة ستشـمل الناس جميعـا يوم القيامـة(١) •

والايمان بالله ، فاطر السموات والارض ، المشرع ، احكم الحاكمين ، هذا الايمان وحده لا يكفي ، فالقرآن يعلمنا ان المؤمن الصالح يجب ان يكون لديه ذلك الايمان ، وعليه ان يراعي القانون ايضـا ، وانه ليتطلب منـا الاخلاص فى العقيدة والمثابرة فى الطاعة • وهو ـ اذ يأمر بذلك ـ يوقظ فينا الشعور بالخير والشر ، والاحساس بالجمال والقبح : « قل ان الله لا يأمر بالفحشاء » (الاعراف : ٢٨) «قل انما حرم ربي الفـواحش ما ظهر منهـا وما بطن ، والاثم والبغي بغير الحق » (الاعراف : ٣٣) ، «يا ايها الذيـن آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضا ، ايحب أحدكم ان يأكل لحـم اخيـه ميتا فكرهتموه » (الحجرات : ١٢) • ويشير القرآن الى ان الحكمـاء والقديسين كـانوا يلقنون الناس هذه المثل العليا فى الواجبات الدولية • وطالما ذكرت اسمـاء ابراهيم واسحق واسماعيل ويعقوب وموسى وعيسى فيمن لقنوا الناس مثل

يبعث من فى القبور (آية ٥ـ٧) • وقال فى سورة الروم : « فانظر الى آثار رحمة الله ، كيف يحيي الارض بعد موتها ان ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير » (آية ٥٠)

(١) قال الله تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) • (سورة الزلزال : ٧ ـ ٨) •

[المترجم]

هذه الفضائل وعلموهم ضرورة الصلاة والزكاة والصيام وما اشبه ذلك .

وهكذا يتضح ان القرآن حرص على الاحتفاظ بالتعاليم السابقة المتعلقة بالفضيلة والتي كانت تعاليم صائبة ، ولكن علينا ان نلاحظ انه لم يحتضن تلك التعاليم السابقة التي كانت قد انحرفت وزاغت عن جادة الصواب . ان القرآن يسير فى طريقه الخاص بباعث من تلقاء نفسه ، وهو ـ اذ يحافظ على التراث الديني والادبي ـ انما يضفي عليه الكثير من الروعة ويتوج ذلك البناء الالهي الذي اسهم فى بنائه جميع الانبياء . وعن طريق شتى البراهين التي تقنع العقل وتجذب القلب تطور تعليم صفات الله ومصير الروح وواجبات الانسان الادبية فى القرآن اكثر من اي شيء آخر سواه .

وعلى سبيل المثال فالقرآن بدلا من ان يكتفي بمنع السكر ، استأصل الشر من جذوره بأن حرم كل ما هو مسكر تحريما قاطعا . ومثال ثان ، فان القرآن ـ بعد ان وفق بين المبدأين المتباينين ظاهريا فى « التوراة » و « الانجيل » مبدأي العدل والاحسان ـ اضاف شيئا جديدا بالمرة نستطيع ان ندعوه بقانون تهذيب الاخلاق او قانون تقويم السلوك والآداب (كما جاء فى سورة النساء : ٨٦ ، وسورة النور : ٢٧ ـ ٢٨ ، ٣١ ، ٥٨ ـ ٦٢)(١) .

---

(١) « واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها او ردوها ، ان الله على كل شيء حسيبا » (النساء : ٨٦) ، يا ايها الذين آمنو لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على اهلها ذلكم خير لكم ، لعلكم تذكرون ، فان لم تجدوا فيها احدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ،وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا، هو ازكى لكم ، والله بما تعملون عليم » (النور : ٢٧ ـ ٢٨). « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن او آبائهن او .. الخ (النور : ٣١) ، « يا ايها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة و.. الخ » (النور : ٥٨ـ٦٢)

[المترجم]

وانا على ضوء الوصايا العشر التي جاء بها موسى كنا لا نزال في رحاب القوانين الاساسية الاولية ، كما لو كنا على سطح الارض من علم الادب والاخلاق ، وبموعظة الجبل رأينا انفسنا على مرتفع يعلو عن سطح الارض كثيرا حيث يتفوق الاحسان على العدل ، وتزدري مملكة السماء دولة الارض . وأخيراً جاءتنا تعاليم القرآن فبلغنا الذروة وارتقينا القمة حيث اجتمع الاحسان والعدل ، وبلغ التنزه عن الهوى منتهاه ، فاستهدفنا الخير المطلق ــ وهو الله عز وجل ــ والله ذاته يجب ان نضعه نصب أعيننا عندما ننفذ ارادته ونسير حسب مشيئته ونحيا حياة فاضلة[1] .

والقرآن عندما انزل على النبي اضاف الى ما سبقه اشياء جديدة وأصيلة شأنه في ذلك شأن كل كتاب منزل آخر . والقرآن عندما انزل على النبي جاء « مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » (سورة المائدة : ٤٨) ، و« الهيمنة » هنا تعني ابعاد التأويل ونبذ التفاسير الخاطئة التي نسبت زورا وبهتانا الى الكتب السماوية السابقة : « وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » (النحل : ٦٤) . والقرآن نفسه مصان من اية اضافات او تبديلات ، ذلك لان الله ذاته وعد بان يحفظه ويصونه : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » . أما الكتب الاخرى فقد دونها أناس وتركت لهم يصونونها (راجع سورة المائدة : ٤٤)[2] .

وبالاضافة الى هدى القرآن الأولي من ذكر الحقائق الدينية والادبية

---

(١) سئل الرسول (ص) ما الاحسان ، قال : (ان تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك) رواه مسلم (شرح الاربعين النووية ص١٦) .

(٢) يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه . يقولون ان اوتيتم هذا فخذوه ، وان لم تؤتوه فاحذروا ، .. » (المائدة : ٤٤) . وقال ايضا : « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعدما عقلوه وهم يعلمون » (البقرة : ٧٥) .

[المترجم]

هناك اغراض ثانوية تستهدف تقوية الايمان بالخالق أو تقوية الأمل لـدى المؤمنين . ومن المدهش ان نكتشف مدى انطباق تفسير عالم الطبيعة الذي خلقه الله انطباقا تاما على احدث ماتوصل اليه علم نظام الكون وعلم التشريح وعلم وظائف الاعضاء وبقية العلوم الموضوعية الاخرى مـن اكتشافات . وعلى سبيل المثال فلنتأمل فى هذه الامثلة الرائعة من المعرفة العلمية: كروية الارض (سورة الزمر : ٥)[١] ، تكوين المطر (سورة الروم : ٤٨)[٢] ، التلقيح بالرياح (سورة الحجر : ٢٢)[٣] ، الاصل المائي لجميع الاحياء (ســورة الانبياء : ٣٠)[٤] ، الثنائية (او الزوجية) فى جنس النباتات والمخلوقات الاخرى ، ولم تكن هذه بمعروفة (سورة يس :٣٥)[٥] ، الحياة التعاونيـة لدى الحيوانات (سورة الانعام : ٣٨) [٦] ، طريقة الحياة لدى النحـل (سورة النحل : ٦٩)[٧] ، المراحل المتتابعة للجنين فى رحم أمه (ســورة الحج : ٥ ، وسورة المؤمنين : ١٤)[٨].

---

(١) كروية الارض : « خلق السموات والارض بالحق ، يكور الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل ، وسخر الشمس والقمر ، كل يجري لاجـل مسمى ، الا وهو العزيز الغفار » (الزمر : ٥) .

(٢) تكوين المطر : ١ ـ «الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله ، فاذا اصاب به مـن يشاء مـن عباده اذا هم يستبشرون » (الروم : ٤٨) .

ب ـ وقال تعالى ايضا : « ألم تر ان الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثـم يجعله ركاما ، فترى الودق يخرج مـن خلاله » (سورة النور : ٤٣) .

(٣) التلقيح بالرياح : « وارسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا مـن السماء ماء، فأسقيناكموه ، وما انتم له بخازنين » (الحجر : ٢٢) .

(٤) الاصل المائي لجميع الاحياء : ... « وجعلنا من الماء كل شيء حـي ، أفلا يؤمنون » (الانبياء : ٣٠).

(٥) الزوجية فى النباتات والمخلوقات الاخرى : الآية التي استشهد بها الكاتب فى هذا المجال هي : « سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم ومما لا يعلمون » (سورة يس : ٣٥) . وهناك آية اخرى فى هذا الصدد هي: « ومـن كل شيء خلقنا زوجين » (الذاريات :٤٩) .

(٦) حياة النحل : « واوحى ربك الى النحل ان اتخذي مـن الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون » ، (سورة النحل : ٦٩).

لقد حققت النبوة للمؤمنين ما أيدهم فى آمالهم بصورة مستمرة ، ففي آيات قصار من سورة الدخان تنبأ القرآن بدقة عن المراحل المختلفة التي ستمر بها الدعوة الاسلامية وما ستلاقيه على ايدي خصومها الاوائل ، وكيف انهم سيبدون باديء ذي بدء غير مكترثين ولا مبالين بها ثم يفتحون عيونهم ويبدون اهتمامهم ، واخيرا يعارضونها ويجهرون بعدائهم لها . وفى نفس الوقت تنبأ لمكة بانها ستصبر — باديء الامر — على شقاء مريع يجعل بعض الناس لا يصدقون ما يرون ثم اذا بهم تتجه ارواحهم نحو السماء ، وبعد ذلك تزدهر مكة فينسى الناس ربهم ، وأخيراً تصاب بهزيمة نكراء فى أول

---

(٧) الحياة التعاونية لدى الحيوانات : وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكم ، وما فرطنا فى الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون » (الانعام ٣٨).

(٨) المراحل التي يمر بها الجنين فى بطن أمه : « يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الارحام ما نشاء الى اجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ..» (الحج : ٥) .

« ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم انشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله احسن الخالقين » (المؤمنون : ١٢ — ١٤) .

والقرار المكين هو الرحم . وفى وصف القرآن بانه مكين اعجاز يفهمه الاطباء الذين درسوا التشريح ، فقد ثبت ان الرحم مجهز فى تكوينه وفى خصائصه بما يمكن اشد التمكين للجرثومة التي يكون منها اللقاح ، ففيه مخابيء عجيبة خلقت لذلك خلقا ، وفيه مواد يفرزها لوقاية الجرثومة وحفظ الحياة عليها والدفاع عنها وذلك كله تجده فى تشريح كلمة (مكين) .

وفى قوله تعالى : (ثم انشأناه خلقا آخر) معجزة دقيقة من معجزات القرآن ، فقد ثبت ان الجنين اول تخلقه يكون فى الانسان والحيوان على شكل واحد فتحوله الى الصورة الانسانية بعد ذلك انشاؤه وخلقا آخر . ومن هذا كله يتبين لنا بوضوح ان اطوار الجنين المذكورة فى القرآن هي نفس الحقائق التي نقب عنها العلم الحديث حتى اكتشفها ، ايكون ذلك فى مقدور امي فى جزيرة العرب منذ اربعة عشر قرنا ان يأتي بها من عنده الا ان تكون وحيا اوحاه الله اليه . (روح الدين الاسلامي — عفيف طبارة) (صفحة ٥٣ — ٥٤) .

معركة (سورة الدخان : ٩ ـ ١٦) (١) • وتعلن آيات خرى عن نصر الاسلام ،ودوام العقيدة الاسلامية ، ونمو دولة الاسلام الفتيه وعدم استطاعة اية قوة على وجه الارض من ابادة الاسلام (سورة الرعد : ١٨ ، سورة ابراهيم : ٢٤ ، سورة النور : ٥٥ ، سورة الانفال : ٣٦)(٢)•

وقال الله تعالى : « يخلقكم فى بطون امهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك » (الزمر : ٦) • فى هذه الآية معجزة علمية للقرآن فقد اخبر ان الجنين له ثلاثة اغشية اسماها ظلمات وهي الآن يطلق عليها الغشاء المنباري ، والخوريون ، والغشاء اللفائفي ،والجدير بالذكر ان هذه الاغشية لا تظهر الا بالتشريح الدقيق ، وتظهر كانها غشاء واحد بالعين المجردة (كتاب الاسلام والطب الحديث للدكتور عبد العزيز اسماعيل ص ١١٦) •

وقال الله تعالى : « واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا » (الاعراف : ١٧٢). هذه الآية تنص على ان الله اخذ ذرية بني آدم من ظهورهم • والمعروف ان الخصية موضوعة فى الجزء الاسفل لا فى الظهر ، ولكن الله تعالى يتكلم عن خلق الانسان وذريته ونشأته ولذا هو يتكلم عن « علم الاجنة » ويتكلم عن الجزء لذي يخصص للنطفة فى جسم الجنين ، هذا الجزء فى الظهر عند اسفل الكليتين تماما ومن هنا تنمو الاعضاء التي تكون الخصيتين وتبقى فى الظهر تحت الكليتين حتى الاشهر الاخيرة من حياة الجنين فى بطن امه ، ثم تنحدر الى أسفل ، وعند الولادة تكون فى مركزها الطبيعي المعتاد .. فالآية الكريمة تشير والحالة هذه الى النقطة الاصلية فى جسم الجنين التي تؤخذ منها النطفة ، وهذه هي الظهر بلا شك ، ولما كان علم تشريح الجنين لم يتقدم الا فى المائة السنة الاخيرة ، فان هذه الآية تعد فى حكم المعجزات ، وتثبت ان القرآن لا يأتيه الباطل ابداً (كتاب الاسلام والطب الحديث ص ٨١) •

وفى آية اخرى : « فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب » (الطارق : ٥ ـ ٧).

(١) قال الله تعالى : « بل هم فى شك يلعبون ، فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب اليم ، ربنا اكشف عنا العذاب ، انا مؤمنون ، انى لهم الذكرى ، وقد جاءهم رسول مبين ، ثم تولوا عنه، وقالوا معلم مجنون ، انا كاشفو العذاب قليلا ، انكم عائدون ، يوم نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون » (الدخان ٩ ـ ١٦) •

(٢) يظهر ان هناك خطأ مطبعيا فى الاصل الانكليزي فليس فى هاتين الآيتين (الرعد : ١٨ ، ابراهيم : ٢٤) ما يشير الى موضوع البحث •

كذلك تنبأ القرآن بالانشقاق الدائم بين صفوف النصرانية (سورة المائدة : ١٤)[١] وتشتت الاسرائيليين (الاعراف :١٦٨) [٢] واضطهادهم حتى نهاية العالم (الاعراف: ١٦٧)[٣] وحاجتهم الدائمة لحليف يحميهم (آل عمران : ١١٢)[٤] وسيطرة المسيحين على اليهود الى يوم القيامة (آل عمران: ٥٥)[٥] .

ويجب ان نلاحظ ان الامر لم يقتصر على تحقيق نبؤات القرآن فحسب، بل ان القرآن تحدى ان يثبت أحد ـ أيا كان ـ تناقضا فى نبوءاته ، سواء فى الماضي أو الحاضر أو المستقبل : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» (فصلت :٤٢).

من ذا الذي باستطاعته تقديم ضمانات ضد الفضاء والزمن سوى الله ذاته ـ رب الفضاء والزمن ؟

أما فى سورة النور : ٥٥ فقد قال الله عز وجل : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا ، يعبدونني ولا يشركون بي شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون » .

وقال فى سورة الانفال : ٣٦ « ان الذين كفروا ينفقون اموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون » .

وبصدد تنبأ القرآن بنصر المسلمين جاء فى سورة الانفال : ١٩ « أن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ... ».

(١) «ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به ، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون » .

(٢) و (٣) «واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ان ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم وقطعناهم فى الارض امما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون».

(٤) « ضربت عليهم الذلة اين ما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس».

(٥) « اذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعك الي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة » .

[**المترجم**]

ان القرآن أصله من عند الله ، وهذا واضح من جميع الاسباب التي ذكرت فى هذا البحث ، ولم تبق امكانية كون أصله من البشر ، فليس فيه اي انعكاس لاخلاق النبي الشخصية ولا صدى لافراحه واتراحه اليومية او لبيئته الدنيوية ، وليس فيه اية اشارات الى خصائص جغرافية او جوية او عنصرية أو قبلية أو فردية فى المواضيع التي عولجت فيه ، وليس فيه سوى ما تحتاجه البشرية لتثقيفها • وكانت آياته مصحوبة بعلامات منظورة تدل على اصلها الالهي • وان اسلوبه وتركيبه لدلائل ايجابية على ألوهيته ، وان تعاليمه الدينية والادبية لبينات واضحة على ان اصله من عند الله ، وليس هناك ادنى احتمال لان يكون قد اقتبس شيئا من كتب اخرى •

ولهذا السبب فالقرآن له أعلى حظوة لدى المسلمين ، وهو عندهم ليس مجرد كتاب صلوات ، او أداة نبوية ، أو غذاء للروح ، او تسابيح روحانية فحسب ، بل انه ايضاً القانون الاساسي وكنز العلوم ومرآة الاجيال• انه سلوى الحاضر وأمل المستقبل •

والقرآن ــ فيما يقر او ينفي ــ قسطاس الحق وميزانه • وهو ــ فيما يأمر أو يحرم ــ خير مثال يحتذى فى السلوك : وفيما يحكم به صادق دائما ومنصف : وفيما يبحثه يعطي الحجة القاطعة والقول الفصل ، وفيما يقوله أصفى وأجمل تعبير ممكن فى الحديث • انه خير ما يبعث الطمأنينة أو يثير النخوة فى النفوس •

وما دام القرآن هو التعبير المباشر عن ارادة الله ومشيئته فهو المرجع الاعلى للناس كافة • ونحن ملزمون بطاعة آبائنا واولى الامر منا ، بل والنبي نفسه اذا كان ذلك مبنيا على مبدأ موجود فى كتاب الله . واطاعتهم فرض علينا ما دامت تبلغ اوامر الله او انها لا تناقضها •

ومن المفيد ان نعلم كيف كان النبي نفسه ينظر الى الآيات القرآنية : لم يكن يستطيع ان يمسها ــ من ذاته ــ باي تغيير مهما كان طفيفا ، وانه كان يفسرها تماما شأن اي شارح يفسر ما ليس من وضعه •

الثاني من مصادر التشريع والتهذيب الاسلامي ٠ وهي أسس ما يدعوه المسلمون بالسنة ، وتعتبر لديهم المصدر والاقرار ،

وتقد استخلص النبي (ص) هذه السلطة الثلاثية من القرآن ذاته ، فالقرآن يأمرنا بطاعة أوامر الرسول (سورة النساء : ٥٩)[1]، وسورة النور ٥٦)[2] ، والقرآن يقول لنا ان من يطع النبي يطع أوامر الله نفسها (سورة النساء : ٨٠)[3] وينصحنا ان نقتدي بالرسول الكريم ونسير على نهجه (سورة الاحزاب : ٢١)[4]٠ وفي القرآن أمر الرسول ان يكون سلوكه مثالاً يقتدي به المؤمنون (سورة الاحزاب : ٣٧) ٠ والقرآن يصف النبي بأنه من يأمر الناس بالمعروف وينهي عن المنكر ، ولذا فكل ما لم ينه عنه النبي فهو مباح (سورة الاعراف : ١٥٧) [5]٠

وتذهب الاغلبية المطلقة من المتعلمين عند المسلمين — وهي على جانب كبير من الصواب — الى ان تعاليم الرسول تتبع توجيهات من السماء — رغم انها ليست بذات نص ، بل مجرد الهام ، اما اذا كانت محاولة شخصية

---

(١) جاء في سورة النساء : آية ٥٩ : « يا آيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الامر منكم ، فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » ٠

(٢) وجاء في سورة النور : آية ٥٦ : « واقيموا الصلاة واتو الزكاة واطيعوا الرسول لعلكم ترحمون » ٠

(٣) جاء في سورة النساء : ٨٠ : « من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما ارسلناك عليهم حفيظاً »٠

(٤) وفي سورة الاحزاب : ٢١ : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً »٠

(٥) جاء في سورة الاعراف : ١٥٦ « الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم اصرهم والاغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه اولئك هم المفلحون » ٠

[المترجم]

وبشرية صرفة فانما كان النبي يطبق روح دستور القرآن. واذا حدث وارتكب خطأً في تعليماته بصفته انساناً من البشر، دون تنزيل معين، فسرعان ما يرده الوحي ويعيده الى جادة الصواب (سورة النساء: ١٠٦ـ١١٣، سورة الانفال: ٦٧(١)، وسورة التوبة ٤٣ (٢)، ١١٣(٣)). في حالة عدم وجود مثل هذه الآيات التي نزلت لتصحيح اخطاء وقعت فان جميع ما أمر به وحلله وقضى به وسلكه يعتبر ـ عن حق ـ في حكم الموافق عليه ضمنا، وله سلطة تشريعية وتثقيفية تامة، على ان يكون قد روي عن مصادر صحيحة موثوق بها تمام الثقة. وهكذا فان الاحاديث النبوية في الاسلام مرتبطة بالقرآن كما ترتبط قوانين الدولة بدستورها.

وانها لحقيقة واضحة المعالم ان القرآن يأمرنا بالرجوع مباشرة للحديث النبوي لاخذ التعليمات المفصلة منه فيما يتعلق باكبر فرضين أساسيين عمليين في ديننا ـ الا وهما الصلاة، وهي واجبنا تجاه الله، والزكاة، وهي واجبنا ازاء ابناء ملتنا فيتحدث القرآن عن الصلاة فيقول بصراحة وجلاء: «فاذا أمنتم، فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون» (سورة البقرة: ٢٣٩)، وعن الزكاة فيقول عنها انها «حق معلوم» للمحتاجين ينالونه من المؤمنين الصالحين: «والذين في أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم» (سورة المعارج: ٢٤ ـ ٢٥). وفي القرآن كذلك اشارات مماثلة حول

---

(١) جاء في سورة الانفال: ٦٧: «ما كان لنبي ان يكون له اسرى حتى يثخن في الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم»، نزلت الآية عندما عفا الرسول عن الاسرى في موقعة بدر وقبل منهم الفداء.

(٢) وفي سورة التوبة: ٤٣ قوله عز وجل: «عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين»، وكان صلى الله عليه وسلم. اذن لجماعة في التخلف باجتهاد منه فنزل عتابا له وقدم العفو تطمينا لقلبه.

٣) وفي الآية ١١٣ من نفس السورة: «ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعدما تبين لهم انهم اصحاب الجحيم»، ونزل ذلك في استغفاره صلى الله عليه وسلم لعمه ابي طالب واستغفار بعض الصحابة لابويه المشركين.

[المترجم]

موسم الحج والاشهر الحرم • وعندما لا يرد فى القرآن ذكر تفاصيل أوفى عن هذه الامور أو اية تفاصيل واضحة عن كيفية اداء تلك الفرائض فمن الواضح ان القرآن ـ باشاراته تلك ـ انما يقر السنة ويمنحها حق ايضاح فرائض القرآن العامة والتعريف بها • ولولا السنة لظلت هذه النصوص القرآنية غير مفهومة ، ولبقيت مجملة وهي ـ فى الواقع ـ تحتاج الى تفصيل •

ان دور السنة النبوية لا يقتصر على توضيح الفرائض التي تضمنتها الاوامر العامة المنزلة فى القرآن ، انما يمتد الى سن أوامر جديدة وتحريم أمور اخرى كثيرة مما لا نجد له ذكرا صريحا فى القرآن • وليس فى هذا ـ على كل حال ـ اضافة لتشريعات االقرآن ، فان دراسة دقيقة تظهر ان كلا من هذه الاحاديث انما يعبر عن روح تعاليم وردت فى القرآن بشكل اعم ، بالرغم من انه ليس من السهولة بمكان اكتشاف الروابط التي تربط بين كل من هذه الاحاديث مع أسسها الصحيحة فى القرآن •

وعلى سبيل المثال نذكر ان القرآن فرض استخراج الزكاة من الذهب والفضة والغلة وكل ما يدخل فى باب « الممتلكات » و « الاشياء التي وهبها الله » • واضاف النبي لذلك ضرورة استخراجها لذلك من قطعان الماشية • وفرض القرآن كذلك الصيام فى شهر رمضان للتدريب على التقوى والصبر واتاحة الفرصة للتعبير عن الشكر لله على نعمه وآلائه ، واضاف النبي لذلك وجوب اخراج الزكاة فى نهاية شهر رمضان كوسيلة اضافية لتحقيق تلك المقاصد • والقرآن يحرم الربا ، والنبي يحرم البيع بأسعار فاحشة ، فهو والربا صنوان . وما دام مثل هذا البيع ـ الذي هو بين البيع المشروع والربا المحرم ـ مدار شك وريبة فى الاعمال التجارية ، فالنبي يعتمد فى تحريمه ـ وهو على صواب ـ على تشريع القرآن الذي يوصينا بالكف عن كل ما يحيطه الشك والريبة • ومثال ثان ، يفرض القرآن الجلد

بالسياط عقوبة لجريمة الزنا[1] ، بينما تخصص السنة عقوبة الجلد للاشخاص غير المحصنين أو غير المحصنات[2] • أما المحصن أو المحصنة فجزؤهما الاعدام رجما[3]، وذلك استنادا الى آية فى القرن الكريم تقول بان عقوبة الزانية حبسها فى بيتها حتى الموت أو يجعل الله لها مخرجا[4] •

ان المسلمين جميعا ملزمون بالتقيد بالسنة ــ وهي المبنية على الاحاديث الصحيحة المتعلقة بتعاليم النبي وافعاله وموافقاته الحكمية وهم على حق فى تقيدهم بها • وما دام القرآن قد خول النبي السلطة التامة لهداية الناس وارشادهم فى معنى الآيات المنزلة ، فالنبي خير مشرع فى الامور التي تتطلب الايضاح ، وهو يعرف اكثر من اي مشرع آخر روح الشريعة وجوهرها . ولذا فليس من المستغرب ان يقدم على خطوات تشريعية جديدة ، وبذلك اوجد السنة التي يلتزم بها المسلمون كافة ، وجاءت تشريعاته عن طريق القياس والتعريف المحكم وتفصيل الآيات الواردة فى القرآن •

الخلاصة

اننا نرى الآن كيف ينظر المسلمون الى القرآن والنبي •

ان القرآن عمل الهي صرف ، وصلت نصوصه الى العالم على يد رسول من السماء ــ هو الروح الامين جبريل الذي أودع القرآن فى قلب محمد(ص)

---

(١) قال الله تعالى : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » (سورة النور : ٢) •

(٢) اي غير المتزوجين وغير المتزوجات •

(٣) ذلك لقوله (ص) : « لا يحل دم امريء مسلم الا باحدى ثلاث : كفر بعد ايمان ، وزنا بعد احصان ، وقتل نفس بغير حق» •

(٤) هذه الآية هي : « واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم، فان شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت اويجعل الله لهن سبيلا » (سورة النساء : ١٤) •

[المترجم]

وقد اقتصر دور محمد (ص) على تلقي الوحي وتعلمه وتدوينه ثم تبليغه للناس وشرحه وتطبيقه • ولم يكن لمحمد ان يتخطى ذلك أو يتجاوزه بأي حال من الاحوال ، أو يجري فى القرآن أي تغيير أو تعديل مهما كان ، لا هو ولا أي أحد من المؤمنين • يمكن تناول اي عمل من صنع البشر بالبحث والنقاش أو المعارضة والمناقضة على ضوء احداث الماضي او الحاضر او المستقبل • أما القرآن ــ وهو كلمة الله ــ فهو الكمال بعينه ، وهو الحق الذي لا مراء فيه ، والصواب المعصوم من الخطأ والزلل ، وانه الخير والجمال الذي لا يضاهى •

ولم يكن محمد ــ وهو نبي الله ــ سوى انسان من البشر[1] • انه لم يكن الها عظيما ، ولا الها صغيرا ، حتى ولا شبه اله ، ولا مساعد اله ! لم يكن بقادر على نيل الخير وحده ، أو تجنب الشر ، الا باذن ربه • وهذا الكثير مما عرفه النبي من الماضي أو المستقبل انما انزل اليه من رب العالمين. وما كانت احكامه معصومة الا اذا كان الوحي يؤيدها • ولكنه كان يتميز عن بقية البشر بشمائل وفضائل فطرية ممتازة ، وبالعلم الالهي الذي وهبه الله له ، وامتاز بشرف رسالته • انه رأس المؤمنين قاطبة ، ولما كان هو المفسر الامين والمثل الحي للقرآن فاننا ندين له بالطاعة والولاء والحب والاجلال • والقرآن يحثنا على معاملته باحترام وتبجيل خاص •

ان النبي الكريم أخرجنا من ظلمات الجهل الى نور الحق ، وأعادنا من طريق الضلالة والرذيلة الى صراط الاسلام المستقيم • ولكن مهما كان احترامنا له كبيرا ، ومهما كان حبنا له عميقا ، فهو لا يسمو فى نظرنا فوق مصاف البشر • ومحمد لم يطمح ابدا ان يكون فى مصاف الالهة ، فقد كان رسول الله وعبده • ونحن نعتقد ونؤمن ان دوره كعبد لله يتفوق على دوره كرسول له اننا لا نعبده ولا نصلي له ولكننا ندعو الله ان يصلي

---

(١) قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي (سور الكهف آية ١١٠)
(المراجع)

عليه[1] ، ويبارك عليه[2].

ان نظام التوحيد فى الاسلام منزه وصاف فى منتهى النزاهة الصفاء لا تشوبه شائبة الشرك .

لا اله الا الله

محمد عبده ورسوله

الناس جميعاً اخوة

هذه هي العناصر الثلاث التي تكون العقيدة الاسلامية كما تظهر فى سور ثلاث متتابعة (سورة محمد : ١٩[3] ، وسورة الفتح : ٢٩[4] ، وسورة الحجرات : ١٣ (٥).

هذا هو صراط الاسلام المستقيم ، صراط الذين يستسلمون لارادة الله ومشيئته كما انزلت فى القرآن الكريم ، كلمة الله التي جاء بها جبريل الروح الامين الى محمد رسول الله (عليه أفضل الصلاة والسلام).

---

(١) « اللهم صل على محمد » .

(٢) « اللهم بارك على سيدنا محمد » .

(٣) « فاعلم انه لا اله الا الله ...» (سورة محمد : ١٩) .

، «والهكم اله واحد ، لا اله الا هو الرحمن الرحيم» (سورة البقرة :١٦٣).

، «الله لا اله الا هو الحي القيوم»(سورة آل عمران:٢ وسورة البقرة:١٥٥).

، «... ولا تجعل مع الله الهاً آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحوراً » (الاسراء : ٢٢)

، « فالهكم اله واحد فله أسلموا .. » (الحج : ٣٤)

(٤) «محمد رسول الله ...» (الفتح :٢٩) .

(٥) « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم » (الحجرات : ١٣) .

[المترجم]